

أحاديث اجتماعية وثقافية

الدكتور إبراهيم مدكور

دار الشروق 

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨١ - ١٤٠١

© دار الشروق

القائمة: ١٦ شارع مواد حنفى، هاتف: ٧٥٤٣١٤، بزنس، شروق العام - تلکس: 93091 SHROK UN
بیموت ١، ص ب ٨٠٦٤، هاتف: ٣١٥٨٥٩، بزنس، داشروق - تلکس: 5HOROK 20175 LE

بيان

هذه سلسلة من ثلاث حلقات أذيعت في الأعوام الثلاثة الأخيرة ، ولم أشأ أن أضيف إليها إذاعات سابقة ، لأنها تدور حول بعض المشاكل الاجتماعية والقضايا الفكرية المعاصرة ، وتنصب على موضوعات يتصل بعضها ببعض . ولا أظن أن هذه الموضوعات قد استوفت بحثًا ، أو أنا قد انتهينا فيها إلى حلول عملية فاصلة ، ولا يزال مجال القول فيها ذاسعة وعسى أن يكون في نشرها ما يوجه الأنظار إليها ، لاسيما ومستمعوها في الماضي محدودون مهما بلغوا . .

الحلقة الأولى الشباب

١ - الشباب

يطيب لنا الحديث عن الشباب دائماً . لأنهم زهرة الحياة
وعدة المستقبل . وقد قدر لي أن أعيش معهم طويلاً . عرفتهم
شاباً فالتقت لغتي بلغتهم واختلطت أحاسيسي بأحاسيسهم .
والشاب أقرب ما يكون إلى أخيه الشاب . وشاءت الصدفة أن
أعيش مع شبان كثيرين من أهلى وغير أهلى . من وطنى وغير
وطنى ، والشباب لحمة قد تزيد أحياناً على لحمة القرابة
والنسب .

وعرفتهم كهلاً وشيخاً فى أبنائى وتلاميذى ، وأفضل أن
أسمى الأخيرين أصدقائى . وما أجمل صلة التلميذ بأستاذه
حين تتحول إلى صداقة ، يأنس فيها التلميذ إلى الأستاذ .
فيفضى إليه بكل ما فى نفسه . ويستعين به فى قضاء حوائجه
وحل مشاكله . ويرفع الأستاذ الكلفة ، فيعامل تلميذه معاملة
الند للند ، ويسمو بمعنوياته . ويغرس فى نفسه دعائم الرجولة
الحقة . وكثيراً ما فاتتنا هذه الصداقات فى تعليمنا الجامعى .

وما أحوجنا إليها . فافتنا تحت ضغط العمل وأعباء الحياة .
ضغط على الطلبة والأساتذة على حد سواء . وافتنا تحت تأثير
العدد وكثرته ، وهذه مشكلة تعليمية كبرى لابد أن نجد لها
حلا ، إن فى التعليم العام أو فى التعليم الجامعى ، وإلا كتب
على تعليمنا أن يبقى آليا لا روح فيه ، وماديا لا قلب له .

والصداقة التى أنشدها ، هى صداقة الطالب الجامعى
لأستاذه ، صداقة تغذى العقل والروح معاً ، وتقدم نماذج
حية لسلوك يحتذى ومثل أعلى يسار على نهجه ، والأستاذ
الجامعى خير ما نرجو لهذا السلوك ، وأولى الناس بضرب هذا
المثل . أريد باختصار أن تكون علاقة الطالب بأستاذه شبيهة
بعلاقة الصوفى بشيخه ، يرى فيه قدوته وإمامه . ويقرب منه
قرباً تنفذ فيه أشعته إلى نفسه ، وتتصل روحه بروحه . وأخشى
ما أخشاه أن يكون نصيب الحياة الروحية فى تربيتنا وتعليمنا فى
تضاؤل مستمر ، وهذه ناحية يجدر بنا أن نرعاها وأن نعى بها
عناية خاصة . ولأزال أذكر كلمة قالها عاطف بركات يوماً
لطلابه فى مدرسة القضاء الشرعى : « كم أود أن أكون
بينكم بمثابة الشيخ من مريديه ، وألا يقل نصيبى فى تربية
أرواحكم عنه فى تربية عقولكم » .

ويمر الشباب الآن بأزمة حادة يتطايّر شررها يمينًا وشمالاً .
وتنتقل عدواها شرقًا وغربًا . وليس شبابنا بآمن منها .
وعدوى الأفكار والعادات ليست أقل من عدوى الأزياء
«المودات» . ونحن مولعون بتقليد الغرب في كل شيء . ووسائل
عدواه كثيرة . وسرعتها خاطفة . هي من سرعة النفاثات
واللاسلكيات . وكثيرًا ما تنتقل العدوى دون أن نحس بها ، ثم
تتمكن من نفوسنا فلا نعرف كيف نخلص منها .

ومن أخص خصائص أزمة الشباب الحاضرة قلق وحيرة .
وعدم شعور بالرضا . واستهانة بالقيم . وضرب من اللامبالاة
الزائدة . فالشباب اليوم قلق في حركاته وسكناته . في صلاته
وعلاقاته ، وكثيرًا ما ينزع إلى التغيير ولو إلى أسوأ . وليس في
القلق راحة ولا رضا ، فهو غير راض عن حاضره وغير
مطمئن إلى مستقبله . واستهائته بالقيم ملحوظة في قوله وعمله ،
لأنه لا يعتد بعرف أو تقليد ، ولا يحترم سنًا أو تجربة . وهذه
الاستهانة تؤدي إلى عدم المبالاة والتقصير في الواجب الخاص
والعام .

* * *

وكم نتمنى أن تكون هذه الأزمة عارضة لا تلبث أن

نزول ، وأن تكون هذه الأمراض طارئة سنخلص منها بعد قليل . ولكن واجبنا أن نبحث عن أسبابها ، وأن نبذل الجهد في معالجتها ودرء خطرها . هي أجدر مشاكلنا التربوية والتعليمية بالعلاج ، وأمسها حاجة إلى التعهد والرعاية .

وليس العلاج مجرد قول يلقي ، أو نقد يوجه ، بل هو أساساً تنشئة الشباب وتربيته ، وإن لم يتعهد منذ البداية عزّ تداركه فيما بعد .

وينشأ ناشئ الفتيان فينا

على ما كان عوده أبوه
وأولى بالأب أن يتخذ من ابنه الشاب زميلاً ، وبالأُم أن تنزل أبنيتها الشابة منزلة الصديقة . ومن اليسير أن نحكم على الشاب بزملائه وأقرانه ، وشبيه الشيء منجذب إليه ، وما أجدرنا أن نتعرف هؤلاء الزملاء . وأن نقف على حقيقتهم في غير ما تلصص ولا جاسوسية . ومن الخير أن يعالج العيب في حينه ، وإلا تضخم ، وربما عز علاجه . وعلى المجتمعات الصغيرة من أسرة وناد في ذلك عبء هام ، إلى جانب أعباء المجتمع الكبير ، وكل تلك نواح سنعرضها بشيء من التفصيل في أحاديثنا المقبلة .

٢ - الشباب والأسرة

الأسرة مجتمع صغير ، وفي صلاحه صلاح المجتمع الكبير .
وللأسرة في تربية أبنائها وظائف إن أدت على وجهها كانت لها
ثمار طيبة . ونتساءل اليوم : هل تؤدي هذه الوظائف كما
ينبغي ؟ وهل تقوم الأسرة برسالتها ؟ هل تربي أبنائها رعاية
كاملة ؟ إنى أدع للسادة المستمعين الإجابة عن هذه الأسئلة ،
وأكتفى بأن أشير إلى أنه قد يكون في ظروف حضارتنا الحاضرة
ما يحول دون هذه الرعاية ، فالأبوان العاملان قد لا يجدان
وقتاً كافياً يمنحانه لصغار أبنائهما ، فضلاً عن كبارهم ،
والاشتراك في الأندية والجمعيات قد يصرف الأب والأم عن
أحب الناس إليهما .

وأخشى ما أخشاه أن نكون سائرين في الطريق الذي
سارت فيه الأسرة الغربية ، طريق يعاني فيه الأبناء ما يعانون .
ونساءل بحق : هل لا تزال في الغرب أسرة ؟ لاشك في أنها

تلاشت ، وتوشك أن تنهار . فقرابة الأعمام والأخوال أصبحت وكأن لا وجود لها ، وقربة الأخ والأخت لا تذكر إلا في مناسبات خاصة . واقتصرت الأسرة الغربية على الأب والأم وأولادهما ، على أنها في وضعها هذا ليست واضحة التماسك ولا سليمة البنیان ، وكثيراً ما يكون الأب في واد والأم في واد ، والأبناء حيارى بين هذا وذاك . وإذا ما بلغوا الخامسة عشرة أعلنوا استقلالهم ، ونسوا أحياناً أن لهم آباء وأمّهات . تلك هي المحنة التي يعاني منها المجتمع الغربي ، ولا يدري كيف يخرج منها ، ولا شك في أن آثارها سيئة على الأطفال والشبان .

ففي أسرة كهذه يعز علينا أن نتحدث عن روح وقلب ، أو عن امتزاج وتعاطف ، وبجال الإشراف محدود ، وسبل الرعاية ناقصة . وأعضاء هذه الأسرة أشبه ما يكون بمجرد شركاء في المسكن والمأكل ، وربما أكلوا فرادى لا يلتقون على طعام أو شراب ، وقد لا يرى بعضهم بعضاً لعدة أيام . للأب عمله وناديه وأصدقاؤه واجتماعاته ، ولا مناص من أن يضيع واجب الأبوة في ثنايا ذلك . وقد لا تختلف الأم عن هذا كثيراً ، ويضيع واجب الأسرة كلها نحو أبنائها . وعبئاً نحاول إن شئنا أن نحل محل ذلك المرضعات والمرافقات ، أو بيوت

الطفولة والشباب ، فكل تلك حلول مصطنعة لا يمكن أن تغنى عن الحلول الطبيعية ، فى وسعها أن تساعد . ولكنها لا يمكن أن تحمل محل قلب الأم وعين الأب .. على أنا أصبحنا ولا سبيل لنا إلى هذه المرضعات والمرافقات .

وقديماً قالوا : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اجعل حبله على غاربه . ولا سبيل لأن نلاعب أطفال اليوم سبعا بحال . فنحن ندفع بهم إلى رياض الأطفال فى سن الثالثة ، ولو استطعنا لأرسلناهم قبلها . ولاشك أنا نحاول بهذا أن نخلص من بعض أعبائهم . وأصبحت مرحلة الطفولة فى الحقيقة قصيرة جداً . وتحولت إلى مرحلة جدّ ومسئولية عن واجبات تؤدى . وامتحانات نقل وقبول . وما أحوجها فى وضعها هذا أن تنال حظاً وافراً من عطف الآباء وحنان الأمهات .

وما انتزعناه من سنى اللعب أضفناه إلى سنى التأديب . وأصبحنا نؤدب أولادنا عشراً أو يزيد ، وليتنا نتولى شيئاً من تأديبهم بأنفسنا . ولكننا وكلناه كله تقريباً لغيرنا . ومع تقديرى لشأن المدرسة أحب أن ألاحظ أن لغة الأب والأم تختلف عن لغة المعلم والمعلمة . وما أحوجنا فى مرحلة الطفولة الغضة إلى

كثير من الحنان والمحبة ، وهذه مهمة البيت قبل أن تكون مهمة المدرسة .

أما مدة المصاحبة . وهى التى تعنى الشباب كثيرًا . فقد انمحت من حساب الأسرة العصرية . فللشباب أصدقاءه . ولا سبيل لأن يتخذ أباه واحدًا منهم يأنس إليه . ويفضى إليه بمتابعه ومشاكله . وللشابة صديقاتها . وقليل من الأمهات من يجعل ابنته الشابة صديقة له تأمنه على سرها . وتبوح له بما يحول بخاطرهما . وما بين الرابعة عشرة والعشرين مرحلة حرجية فى سن الشبان والشابات . ومن ألزم الأشياء فيها الرعاية الحانية والنصح الرقيق .

* * *

إن على الأسرة واجبات نحو الشباب . ومن العسير أن يحل غيرها محلها فيها . ولها رسالة لا بد أن تؤديها . ولئن قصرت فيها فإنما تقصر فى حق نفسها أولاً ، ثم فى حق الله والوطن ثانيًا . وأنا لا أنكر أن الحياة أصبحت تلقى على الأبوين أعباء لا سبيل لها للتخلص منها ، فالأب يعمل من جانبه . والأم

تعمل من جانبها ، وقل أن يجمع بينهما عمل واحد . وحالت
النزعة الاستقلالية والمساكن المنعزلة دون الجد والجدة . إن
وُجدا ، أن يقوموا ببعض الواجب نحو صغار الأبناء . ولم تتوفر
لدينا بعد دور الحضانة الملائمة التي تستطيع أن تسد بعض هذا
النقص - وما أحوجنا أن تتوسع فيها . وأن نحكم الإشراف
عليها ، فقد أصبحت ضرورة لازمة للأم العاملة - على أنه
ليس في وسعها أن تحل تمامًا محل رعاية الآباء والأمهات .
ومن الخطأ أن يركن إليها وحدها ، كما كان يُصنع من قبل مع
المرافقات والمرضعات .

إن حياتنا الأسرية عامة في تطور ملحوظ . وعلينا أن
نسايره ونتعهد ، وإلا فقدت الأسرة وظيفتها . وعجزت عن
أداء أهم واجباتها . وعلى الأب والأم أن يذكرنا دائماً أن
عملهما لا يشفع لهما مطلقاً في أى تقصير نحو تربية أبنائهما .
وفى وسعها أن يلائما بين العمل وواجبات الأبوة والأمومة .
وحذار أن نقع فيها وقعت فيه الأسرة الغربية .

٣ - الشباب والمدرسة

المدرسة ركن هام من أركان المجتمع ، هى مبعث النور والعرفان ، ووسيلة كبرى من وسائل إعداد النشء لمواجهة أعباء الحياة ، وبها يقاس الرقى والمدنية .

وكانت بالأمس مقصورة على عدد من التلاميذ الذين أتاحت لهم فرصة التعلم ، ومكنتهم ظروفهم المالية من تحمل نفقاته . أما اليوم فقد أصبح التعليم العام واجباً من واجبات الدولة ، تضطلع بأعبائه كلها ، وتفرضه على أبناء الشعب جميعاً ، وتحاول نشره ما استطاعت . وهناك أمم استكملت وسائل تعليم النشء منذ زمن بعيد ، وليس فيها أمى واحد ، ولا طفل لا يجد له مكاناً فى معاهد التعليم . وهناك أمم أخرى لا تزال على الطريق ، وتحاول أن تستوعب مدارسها أبناءها جميعاً ، وأن توفر لهم المكان الملائم ، والمعلم الصالح ، والكتاب النافع .

ولاشك في أن التعليم في مقدمة الخدمات العامة التي تضطلع بها الدولة ، وكل ما ينفق عليه بناء وتكوين . وكسب لثروة بشرية هي ذخيرة الأمة وعدتها . وكل عائق في سبيل نشره جناية على المجتمع ، وعدوان على مستقبله ، ووقوف في طريق تقدمه ، ونجاح الأمم اليوم بقدر ما توافر لها من علم ومعرفة . وتقوم حضارتنا الحاضرة في مظاهرها المختلفة على العلم والتكنولوجيا ، ولا بد لنا أن نتسلح لها بسلاح ملائم . وكنا بالأمس نقنع بتعلم القراءة والكتابة ، وبعض مبادئ الحساب ، أما اليوم فتحتاح تربية الشعب إلى ثقافة أوسع ومادة أغزر . ولا نزال نذكر ما كان للشهادة الابتدائية من شأن بيننا في عالم الوظائف والألقاب ، وما هي ذه قد اندثرت . وأصبحت في خبر كان . وتلتها الشهادة الإعدادية ، وهي في سوق الوظائف العامة بين الحياة والموت ، ولا تزيد عن مرحلة انتقالية من مراحل التعليم العام .

وإذا كنا نتحدث عن المدرسة . فإننا نقصد بها معاهد التعليم على اختلافها ، بين ابتدائية ومتوسطة . ثانوية وعالية . علمية وفنية . نظرية وعملية . وفي المدرسة يقضى

الناشئ قسماً غير قليل من زهرة حياته ، لا يقل عن ست سنوات هي مدة الالتزام ، وكم نتمنى أن تصعد هذه المدة إلى عشر سنين ، وأن تنال القرية حظها من العناية والتعليم ما تنال المدينة على السواء . وقد يمتد التعليم في المرحلتين الثانوية والعالية إلى ثمان عشرة سنة ، وفي عشر سنوات أو ثمان عشره إن أحسن استخدامها ، نستطيع أن نكون جيل المستقبل . وأن نعدّه إعداداً سليماً . وهذا ما لم نوفق إليه بعد . فتخرج المدرسة الابتدائية أحياناً شبه أميين . لا يلبثون أن ينسوا القراءة والكتابة بعد عام أو عامين . ويضيق صدر المدرسة الإعدادية عن عدد غير قليل من التلاميذ . وتشكو المدرسة الثانوية من ازدحام الفصول وكثرة العدد الطاغية . وتزداد مشكلة العدد تعقيداً في التعليم العالي والجامعي .

وتضطلع المدرسة بأعباء شتى . اصطالحنا على أن نسميها التربية والتعليم . فعليها واجب تربوي إن قصّرت فيه ضاع جانب كبير من مهمتها . عليها أن تربي الجسم والخلق . كما تغذي العقل والفكر . فتعني بالتربية البدنية . وترعى صحة التلاميذ . وينبغي أن تزيد هذه العناية بتقديم سنّ الطفل . فيعد لكل مدرسة ملعبها . وتنظم لقاءات رياضية بين أبناء

المدارس المختلفة . وتعتبر التربية البدنية باختصار جزءاً أساسياً من رسالة المدرسة ومهمتها . ولا بأس من وجبة غذاء كافية . وبخاصة في البيئات التي لا تستكمل فيها وسائل التغذية . ونتساءل حقاً هل تحظى مدارسنا الابتدائية والثانوية بهذه التربية البدنية حظوة كاملة ؟ أخشى أن يكون ضغط الأعداد قد قضى على الملاعب في كثير من المدارس . وأن يكون تلاحق الدروس قد طغى على صحة الأبدان . ومن بين مدارسنا الثانوية ما كان له في الماضي نشاط رياضي ملحوظ .

وليست التربية الخلقية والروحية بأحسن حظاً من التربية البدنية . وتكاد تهملها المدرسة . ولا تعدّها من رسالتها . ونتساءل هنا أيضاً هل ترعى المدرسة الابتدائية جانب الخلق والسلوك بقدر ما كان يرعاه سيدنا في « كتاب » القرية ؟ وهل تربي فيها العواطف الكريمة والإحساسات الصادقة تربية كافية ؟ إن مما يؤسف له أن العناية بهذه العواطف في ضعف متزايد . وتقل كلما تقدمت سن الناشئ . فهي في المدرسة الثانوية أضعف منها في المدرسة الابتدائية . ولا تكاد تلاحظ في الدراسة العالية . ولا سبيل إليها إلا بتربية دينية ، وقدوة حسنة . وإشراف مباشر . ولن يتحقق ذلك على وجه أكمل

إلا إن عادت الفصول المدرسية إلى أعدادها المقبولة . وبخاصة في مراحل التعليم الأولى . وحين ذاك يستطيع المعلم أن يتصل بتلاميذه اتصالاً أقرب وأوثق .

ولن أقف طويلاً عند مهمة المدرسة التعليمية . فالحديث عنها طويل . والشكوى منها تتردد دون انقطاع ، وقصورها في نمو مطرد . ولا أظن أن أحداً ينكر أن غالبية الحاصلين على شهادة الدراسة الثانوية اليوم في مستوى أدنى مما كان عليه أقرانهم في الربع الثاني من هذا القرن . ومن الظلم أن يلقي وزر هذا على المعلم وحده . بل للبرامج ، ومواد الدراسة ، والكتب . وأبنية المدارس وفصولها . وعدد التلاميذ في كل فصل . ونقص المعامل والأجهزة والآلات . لذلك كله شأن كبير في ضعف التعليم العام في مراحل المختلفة ، وعجزه عن الوفاء بالإعداد المنشود . والمسئولون عن التعليم يدركون ذلك تمام الإدراك . ويرغبون في تدارك النقص ورفع المستوى . وكلنا رحاء أن يوفقوا إلى ما ينشدون .

* * *

وعندنا أن أزمة الشباب التي نشكو منها اليوم ترجع بوجه خاص إلى نقص التربية الخلقية والروحية . ولاشك في أن الأسرة والمدرسة مقصرتان في أداء هذا الواجب تقصيرًا ملحوظًا . ولن يستقيم البناء إلا إذا صلح أساسه . والمجتمع الكبير ثمرة وصدى لهذه المجتمعات الصغيرة . ونتساءل : هل في وسعه أن يتدارك هذا التقصير؟ هذا ما سنعالجه في الحديث المقبل .

٤ - الشباب والمجتمع

في كل مجتمع قطاعاته المختلفة من شباب وكهول وشيوخ ، وفيه طوائفه المتميزة من زراع وصناع وتجار . والمجتمع السليم هو الذي يعرف كيف يلائم بين هذه الطوائف والجماعات . فيحدد واجباتها . ويحترم حقوقها . ويخلق منها وحدة كاملة هي وحدة الأمة والوطن . ودون أن أعرض لمختلف هذه النواحي أكتفي بأن أشير إلى أننا كنا إلى عهد غير

بعيد لا نقيم وزناً لعالم الطفولة . ولا نلاحظ ما يتطلبه عالم الشباب . مع أنهما الحجر الأساسى فى بناء الأمة . وأذكر أنى دعوت يوماً فى توزيع ميزانية الخدمات العامة إلى أن يكون للطفولة والشباب فيها الحظ الأوفى .

ولاشك فى أنا أخذنا نغنى بعالم الطفولة . وإن كانت هذه العناية لم تنتشر فى الريف بعد . وأطفاله يكوّنون الغالبية العظمى من أبناء الشعب . فأعددنا فى المدن والعواصم دور الأمومة ومراكز رعاية الأطفال . وهيانا لهم رياضاً ومعاهد خاصة . ونشأ بيننا فى اختصار وعى وشعور بأن للطفولة عالماً يحسب حسابه . ويتعهد على نحو خاص . ودخل فى ذهننا أيضاً أن للشباب عالماً غير عالم الكهول والشيخوخة ، وأن له نشاطاً ينبغى أن يوجه توجيهاً سليماً ، وإلا انقلب على عكس المراد منه . فأنشأنا له أندية ومعسكرات ، ونظمنا له أسفاراً ورحلات . وعيننا بوسائل الترفيه عنه وتسليته . واضطلعت بذلك جمعيات ومنظمات ، وقامت عليه مصالح وإدارات . ولم تلبث هذه أن حوّلت إلى «وزارة الشباب» . وهذه عناية نقدرها قدرها ، ونطلب المزيد منها . وما أجدر أبناء اليوم ورجال المستقبل أن يحظوا بذلك .

ونحصر على ألا تطفئ في هذا المضمار الأهداف السياسية على الأهداف التربوية ، فتنحول منظمات الشباب إلى خلايا للدعاية السياسية والتكتلات الحزبية . وأنا لا أنكر على الشباب أن يعنوا بالشئون العامة ، وأن يتعرضوا للقضايا السياسية الكبرى . إلا أنه من سبق الحوادث أن يكونوا محترفين ، وأن يتخذوا من السياسة مهنة . ولا أزال أذكر أني خضت ، وأنا شاب ، مع الخائضين في ثورة سنة ١٩١٩ ، واشتركت في نشاطها ومظاهراتها . واعتقلت زمناً ، وما إن خرجت من معتقلي حتى عدت إلى درسي كما كنت . وما تصورت يوماً ، وأنا طالب . أن من حق أن أدبر الشئون السياسية أو أن أزعج أن في وسعي أن أحركها . والخطر دائماً في الغلو ومجاوزة الحد . وفي طغيان الأحداث العارضة على مهمة المرء الأساسية .

وجدير بالقائمين على أمر الشباب أن يعنوا أولاً بسلوكهم وتربيتهم الخلقية ، ليغرسوا فيهم روح الأخوة والمحبة ، والتعاون والتعاضد . ويرغبوهم في البذل والعطاء ، ويحملوهم على إثارة المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ويدعوهم إلى الفهم والتفاهم ، والعدل والمساواة . والتسامح والتعاطف . وهم

أيضاً في حاجة ماسة إلى تربية روحية ، تطمئن إليها قلوبهم .
وترتاح لها ضمائرهم ، ويمتاز سنهم بعاطفة دينية متأججة ،
وعلينا أن نغذى هذه العاطفة بغذاء صالح يبعد بهم عن
التزمت وضيق الأفق ، ويحميهم من المجون والانحراف .
وحدثني صديق فرنسي كاثوليكي أنه كان لا يحرص على
الذهاب إلى الكنيسة للصلاة يوم الأحد ، وما إن شبّ أبناؤه
حتى التزم بالذهاب معهم كل أسبوع . وما أحوج الشاب إلى
ضمير حي يؤمن بالحق ويقدر الواجب ، وما أحوجه أيضاً
إلى أن ترى فيه رقابة ضمير تلزمه بالفضائل وتصرفه عن
الرذائل ، ومن لم يكن له من نفسه زاجر فلن تنفعه الزواجر .
والمؤمن الصادق يخشى الله قبل أن يخشى الناس ، ويؤدي
واجبه مرضاة لضميره قبل أن يرضى الآخرين . وعلينا أن
نضرب له المثل في الأخذ بالمبادئ السليمة واحترام القيم
السامية ، ونقدم له قدوات حية ونماذج سلوك عملية ، وإن
لم نوفق في ذلك فالذنب علينا لا عليه .

والواقع أنه ليس ثمة شيء أدعى إلى الاضطراب والبلبلة في
نفس الشاب من أن يرى في مجتمعه الكبير أفعالاً تناقض
الأقوال ، وخداعاً ونفاقاً ، وتضليلاً ومغالطة . ومن الخطأ أن

يظن أن شيئاً من ذلك يخفى عليه ، بل هو يدركه بفطرته
السليمة ، ويمقته سرّاً أو علناً . ولا شيء أدعى لسخط الشباب
من الظلم الصارخ والمحاباه الجائرة . يستنكرون ذلك كيفما كان
مصدره أو من يستفيدون منه . والمدينة الفاضلة جديرة بأن
ينشأ فيها شباب فضلاء ، وما يزع السلطان أكثر مما يزع
القرآن . وزلة الوالى أو الرئيس بقاء مشهورة . وبعكس هذا
تتيح المدينة الجاهلة الفرصة للمنحرفين والأشقياء . والمنبت
السوء لا يخرج منه إلا نبات سيئ . وللمجتمعات البشرية
خيرها وشرها . ولا يفوتنى أن أشير أخيراً إلى وسائل الإعلام
من صحافة وإذاعة ، ومسرح وسينما . ولها كلها أثرها وتأثيرها
في حياة الشباب واتجاهاتهم . وعلى القائمين عليها مسئوليتهم في
تقديم ما يلائم من قول أو صورة أو تمثيل .

* * *

فصلاح شبابنا واستقامته في أيدينا . وفساده وانحرافه في
قدر كبير منه من صنعنا ، إن في البيت والمدرسة ، أو في
المجتمع العام . وخير سبيل للأخذ بيده وتقويمه أن تقدم له
قدوه صالحة ، وقيادة نافعة . وما أقل هذه القيادات وأضعفها

فى مواقعها المختلفة ، وعلينا أن نهض بها وننمىها ، وإلا خرج الشباب من أيدىنا ، وعزت علينا استعادته .

٥ - الشباب والقراءة

القراءة هواية ملحوظة لدى كثير من الشبان . وفيها توجيه وإرشاد ، وثقيف وترويح ، من أولع بها لا يحس بوحدة قط ، وقديماً قالوا : « وخير جليس فى الزمان كتاب » . وتتطلب القراءة مرانا ودربة . وإلغا وعادة . وتنويعاً وتجديداً . وتخيراً وملاءمة . فهى ركن من أركان تعليم الناشئين ، وواجب من واجبات تربيتهم ، ويقع عبء هذا الواجب على البيت والمدرسة معاً ، ويتحمل المجتمع منه نصيباً غير قليل . والشاب الذى يحسن القراءة ويحبها يتدارك كثيراً مما فاته ، وينمى معلوماته باطراد .

وعلى الأسرة أن تيسر لأبنائها وسائل القراءة الرشيدة ، وأن تحبهم فيها ، وتتخير لهم أحسن الكتب وأنسبها . ففتتح أمامهم

الطريق . وتوجههم التوجيه السليم ، وتشرف في غير ما تجسس على ما يقرأون . وفي وسعها أن تجعل منهم قراء ناجحين . وأن تزيد معلوماتهم باستمرار . وعلى نحو ما يقرأ الآباء ينشأ الأبناء .

وما دان الفتى بحجى ولكن يعلمه التدين أقربوه ولا تقتصر القراءة في البيت على الكتب والواجبات المدرسية ، بل ينبغي أن يضاف إليها قراءات أخرى تدفع إليها الرغبة لا الرهبة ، وتنمى حب الاستطلاع . وإذا كانت الأسرة تحرص على أن تقدم لبنها أجود الطعام وأجمل الثياب ، فعليها أيضاً أن تتخير لهم أسلم الكتب وأصحها ، وإلا سربت إليهم عدوى الأفكار ، وهى ليست أقل خطراً من عدوى الأشخاص . وما أحوج شبابنا إلى قراءة سير كبار الرجال ، ففيها قدوة عملية صالحة ، تغذى الروح وتهذب الخلق .

وواجب المدرسة في هذا لا يقل عن واجب الأسرة ، فعليها أن تعد مكتبات حرة تتناسب مع أعمار الناشئين وأطوار نموهم ، وأن تضعها تحت تصرفهم . وتأخذ المدارس الحقة نفسها بذلك ، ففيها مكتبات للطفولة ، وأخرى لسن البلوغ

والمراهقة ، وثالثة لمرحلة الشباب . ويجد فيها التلاميذ غذاءً صالحاً لأرواحهم وعقولهم . وملئاً لأوقات فراغهم . وهى ولاشك تصرفهم عن أمور ضارة ، ونحن نلاحظ جميعاً أن الطفل أو الشاب إذا وجد ما يستطيع قراءته شغل به عن كل شىء . ويحس رجال التربية بنقص هذه المكتبات فى مدارسنا ، ولابد لنا أن نتداركها . ونحن نشكو فى مسابقاتنا وامتحاناتنا من نقص الثقافة العامة بين أبنائنا وبناتنا . وهذه هى سبل تكوينها وتحقيقها .

وعلى المجتمع أخيراً واجبه فى تحبيب الشباب فى القراءة . فيقدم له الصحف والمجلات المشوقة ، ويتخير له أنسب الموضوعات وأنفعها ، ويسر له أمر الكتاب القيم ، فيجيد طبعه وإخراجه ويخفض ثمنه ، ويزود به الأندية وأماكن لقاء الشباب ، أو مكتبات المدينة والقرية التى يتردد عليها الجمهور . وهذه ناحية ينقصنا فيها الكثير ، وما أحوجنا أن نرعاها إن كنا نريد لشبابنا أن يقرأ ، وأن يقرأ قراءة نافعة .

* * *

والواقع أن شباب اليوم قليل الرغبة فى القراءة . يهملها إلا إن فرضها عليه درس أو امتحان ، ولا يكاد يستطيع منها

إلا الخفيف والرخيص . وأصبحت القراءات الرخيصة داء
استشرى . يتسابق في وضعها بعض المؤلفين . ويسف فيها نفر
من الكتاب . يغذون بها شهوة جامحة ويستغلون جانباً من
جوانب الضعف الإنساني . وأين شبابنا اليوم من المؤلفات
الجادة لأمثال المنفلوطي ، ومصطفى صادق الرافعي . أو
عباس العقاد والدكتور طه حسين ؟ وقد كان الشباب يقبل
عليها أيما إقبال .

وفي كلمة واحدة إن لنا تقاليد صالحة لا بد أن نعود إليها .
ومعالم لا بد أن نهتدى بها . وإلا ضللنا الطريق .

٦ - الشباب والحرية

حديثنا اليوم عن حرية الشباب . وأظنكم تتفقون معي
على أن الحرية غالية . نادت بها تعاليم السماء . واستمسك
بها أهل الأرض . ولا تزال نجد حلاوة في كلمة عمر بن

الخطاب رضى الله عنه : « ما لكم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . ونحن نقدر الحرية فى مختلف صورها : حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية العمل . ونريد بها أن تكون شاملة . لا فرق فى التمتع بها بين شاب وشيخ ، ولا بين فرد وجماعة ، ولا بين عربى وعجمى . ولا بين أبيض وأسود . والحرية شىء غير الفوضى وغير الإباحية . ومما يؤسف له أنا كثيراً ما نخلط بينها .

وليس لشباب اليوم أن يشكوا من نقص حريتهم . فقد نالوا منها قسطاً غير قليل فى البيت والمدرسة والمجتمع . وربما أسرفوا فى هذا إسرافاً يجاوز الحد . وهم دون نزاع ينعمون بحرية لم ينلها آباؤهم ، ونحن نذكر تقاليدنا القديمة التى كانت تحرم على الأبناء أن يجلسوا فى مجالس الآباء ، أو أن يبدوا أمامهم ملاحظة . انقضى هذا كله ، ولم يبق منه إلا بقايا قليلة فى الريف ، وهى بدورها إلى الزوال . وإنا لنرحب بهذا التطور . ونؤيد التربية الاستقلالية التى تتفق مع حكمة العربى القديم التى أشرنا إليها من قبل . وهى : لاعب ولدك سبعا . وأدبه سبعا ، وصاحبه سبعا ، ثم اجعل حبله على غاربه . ولكننا نريد حرية فى طاعة . واستقلالاً فى احترام . ولن يبق

للآباء شيء إذا فقدوا طاعة أبنائهم واحترامهم . وعليهم أن
يغرسوا ذلك في نفوسهم بتصرفاتهم الحازمة الحكيمة .
وإلا فقدوا معاني الأبوة .

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً
فلا تلومن الصغار على الرقص

وحرية التلاميذ في مدارسهم مطلوبة ومحبة ، تفتح آفاقهم
وتكوّن شخصيتهم . وتملأهم ثقة بأنفسهم . ويستمسك بها
كبار المربين ، ويحرصون على أن ينشئوا تلاميذهم عليها .
وأذكر أن واحداً منهم قضى بعض الوقت ليعلم شاباً أمام
زملائه كيف يرفع رأسه . وينصب قامته ، ويتصرف تصرف
الواثق من نفسه . ولكننا نريد للشباب حرية في نظام . وكرامة
في طاعة واحترام . وهذه هي التربية الاستقلالية الصحيحة .
أما أن تنقلب الحرية بين الشبان إلى فوضى واضطراب ، فذلك
عدوان على التعليم والتربية . وتفويت لرسالة المدرسة . ولا بد
من قسوة أحياناً تضع الأمور في نصابها . وتشعر المخطئ
بخطئه .

* * *

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما
فليقس أحيانا على من يرحم
أما أن نتملق الشباب دائما مصيبين أو مخطئين . فإنا نسيء
إليهم بقدر ما نسيء إلى أنفسنا .

وللشباب شأنهم في المجتمع . يرجى منهم أن يكونوا مثال
الطهر والاستقامة ، ودعاة الحق والفضيلة . ذلك لأنه
لم تدنسهم بعد أوزار الحياة . ولم تهتز أمامهم المثل العليا .
فإذا ما انعكس شأنهم ، وأصبحوا هم أنفسهم مبعث شر
ومصدر فساد . يخرجون على العادات والتقاليد السليمة ،
وينكرون القيم والمبادئ السامية ، لا يرعون الله ولا يرعون
الناس ، فتلك ولاشك محنة كبرى وخيبة أمل عظيمة . وما
أغنانى أن أشير إلى بعض الأمثلة كجماعة الخنافس . ومدمني
الخمر والميسر ، وعصابات التشرد والنهب . وأسوأ ما في هذا
أن يبرر باسم الحرية ، وأن يصور بصورة التقدم والمدنية ،
وكأننا أصبحنا لا نفرق بين الحرية والإباحية . ولا بين
الحضارة والهمجية . ولكل شاب حرته ، ولكن في حدود
الشرع والقانون ، ودون خروج على الأدب واللياقة ، فإن
جاوز هذا فذلك تمرد وعصيان .

ليس شيء أحب إلى الآباء من أن يروا أبناءهم خيرا
منهم ، ونحن جميعاً نتمنى للأجيال الصاعدة أن تكون على
مستوى الواجب والمسئولية. فلنعدّها لذلك ، تلك أمانة في
أعناقنا ، والله يأمرنا أن نؤدى الأمانات إلى أهلها .

* * *

الحلقة الثانية

بناء الإنسان المصري

١ - بناء الإنسان المصرى

الإنسان المصرى هو الدعامة الأولى للمجتمع . ولا سبيل إلى نهوض سياسى أو اقتصادى أو حضارى بدونه . ولا شك فى أنه جدير بأن نقف عنده طويلا . لاسيما وتطوره ملحوظ . وتأثره بالعوامل الداخلية والخارجية كبير . وقد فعلت به الأحداث السياسية والاجتماعية فعلها . ويعيننا أن نبين كيف كان موقفه من هذه الأحداث .

والواقع أنا كثيرا ما تحدثنا عن ثرواتنا الطبيعية والصناعية . ودعونا إلى تنميتها بشتى الوسائل . ولم تل الثروة البشرية ما تستحق من عناية . ولم ننمها بعد التنمية المنشودة . وأصبحنا نحس بأن أزمنا الحقيقية هى أزمة الإنسان المصرى قبل كل شئ . فى البيت والمدرسة . فى القرية والمدينة . فى المزرعة والمصنع . والمتجر . فى الهيئات والجماعات . أوفى المجتمع الكبير والوطن كله .

ومما زاد هذه الأزمة حدة ذلك التطور السريع الذى نمر به . فيتابع موكب الحياة سيره دائماً . ولا سبيل لأن نتخلف عنه . ولم يبق اليوم محل لأن نجادل فى هذا التطور أو أن نعارضه . والمهم هو أن نواجهه مواجهة صادقة ندفع بها شره ، ونفيد من خيره والجمود أمامه موت وتخلف . والغلو فيه اضطراب وبليلة . وربما أدى إلى خراب ودمار .

ودعوات الإصلاح الصادقة هى التى تأخذ الأشياء فى يسر وهوادة . فتتأنى وتتدرج . تلائم بين الحاضر والماضى . وتعد للمستقبل . وطبيعة الأشياء تأبى الطفرة . ومن نسى ماضيه نسى نفسه . وعز عليه أن يتعامل مع حاضره . وفقد التوازن الضرورى لحياة الفرد والمجتمع . والثورات والانقلابات من أدوات التطور ووسائله . ولا تخلو من هدم وتدمير . ولكنها إن وقفت عند ذلك كانت خطراً داهماً وشرّاً كبيراً . وكم من ثورات عقيمة لم تعقب إلا الخراب والدمار . والثورات المنتجة هى تلك التى تهدم لتبنى . وتغير وتعديل لتجدد وتصلح .

والإنسان المصرى الذى أقصده هو الفرد العادى ، بصرف النظر عن شبابه وشيخوخته ، عن غناه وفقره ، عن ماله وجاهه ، عن عمله ومركزه ، ولا بد أن يتوافر لهذا الفرد قدر

من القيم الإنسانية ، كالصدق والأمانة ، والتبذل والنزاهة .
والوفاء والإخلاص ، والجد والعمل ، وحب الأهل
والوطن ، وتقديس الحق والواجب . وبقدر ما تكتمل هذه
القيم لديه تكمل إنسانيته ، ويصبح عضوًا صالحًا في مجتمع
صالح . وإن فقدناها عاد بنا إلى الجاهلية الأولى ، فلا دين
ولا ذمة ، ولا احترام لشرع أو قانون ، ولا نزول عند عرف
أو تقليد ، ولا رعاية لمصلحة خاصة أو عامة . وحياة الأمم
ونهوضها وتقدمها موقوف ذلك كله على حفظها من أفراد
اكتملت فيهم معاني الإنسانية .

والإنسان عرضة للتغير والتبدل ، وخاضع لسنة النشوء
والارتقاء ، أو للتدهور والانحطاط . والحضارات البشرية
الكبرى خير شاهد على ذلك ، ويكفي أن نشير إلى اثنتين
منها : واحدة في التاريخ القديم ، والأخرى في التاريخ
المتوسط . ففي التاريخ القديم بلغت الحضارة الإغريقية أوجها
في عهد بركليس ، وأصبحت أثينا منارة العالم الإغريقي ، لما
اتسم به أهلها من علم وحكمة ، وما ساد فيها من قيادات
فكرية وروحية . ووصلت نظمها الديمقراطية إلى درجة
ملحوظة . ثم جاءت الحروب البلوبونيزية فأضعفت شوكتها ،

ونافستها مقدونيا ، وأخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً . ولم يبق لها
إلا مجد أدبي وفكري . لم يلبث هو بدوره أن تدهور وتلاشى .
وبعد الإنسان الأثيني عن قيمه ومعايره .

وفي القرون الوسطى قامت الحضارة الإسلامية على مبادئ
سامية وتعاليم سماوية . تعتد بالإنسان ، وتوجه إليه الخطاب
رأساً . وقد أقبل المسلمون على دينهم ودنياهم بإيمان عميق
وروح فتية ، وانتشرت دعوتهم في العالم شرقاً وغرباً . واكتسى
أبناء الصحراء بكساء جديد . وأصبحوا بناء مجد وحضارة .
حاربوا الفساد والطغيان . ونادوا بالعدل والمساواة . والشفقة
والرحمة ، وضربوا مثلاً عالياً في الإخاء والمحبة . ولم يكونوا في
فتوحهم طغاة ولا جبابرة ، بل حرصوا قبل كل شيء على أن
يكونوا مربين ومصلحين . واعتنق الإسلام شعوب مختلفة .
وأبناء ديانات متعددة . كما اعتنقه ورثة حضارات قديمة شرقية
وغربية ، ولم يمض على الدعوة الإسلامية نحو قرن ونصف
حتى خفقت رايتها في أركان العالم المعروفة حين ذاك . في آسيا
وأفريقيا وأوروبا . وقامت على دعائمها حضارة جمعت بين
العلم والإيمان ، ووفقت بين العقل والنقل . أخذت عن
الحضارات السابقة ما أخذت ، وأضافت إليها ما أضافت .

وأصبحت ذات طابع خاص يميزها من غيرها ، وبرهن المسلمون على تسامح قل أن نجد له نظيرًا في حضارات أخرى . وقدر لهذه الحضارة أن تعمّر عدة قرون ، وأفادت منها الثقافات المعاصرة لها . وعولت عليها . ومهدت دون نزاع للنهضة الأوروبية الحديثة .

ثم عدت عليها عوادي الزمن ، وغفل المسلمون عن تعاليمهم ومبادئهم . فطغى قويمهم على ضعيفهم . واعتدى كبيرهم على صغيرهم . وأهملوا حقوق الله والوطن ، فأفسحوا السبيل للغزاة والمعتدين . وفتحوا الباب للمستعمرين . نسوا الله فأنساهم أنفسهم . وقضوا نحو خمسة قرون في جهل فاحش وظلمة قائمة .

* * *

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأ في العالم الإسلامي بعامة ، وفي العالم العربي بخاصة . وعى جديد ، وهبت نسمة من انتعاش ويقظة . ونالت مصر من ذلك حظها ، فبدأت نهضة حديثة ، وأخذت تصلح وتجدد وتبني وتعمّر . ولها في

القرن الماضى خطوات يعتد بها ، ولا يصح بحال إهمالها .
والا تنكرنا لماضيينا وتناسينا أجدادنا . وفى النصف الأول من
هذا القرن استعادت مصر نشاطها . وتلاحقت خطواتها .
وإن بدت وثيدة . وفى الخمس والعشرين سنة الأخيرة شئنا أن
نستحث الخطى . وأن نتدارك بعض ما فات . وكثيراً
ما تعجلنا السير ، وقفزنا على غير هدى . وبلينا بموجة عاتية
تستهين بالماضى ، وتخرج على العرف والتقاليد . وتعدو على
القيم والمثل العليا . ووقعنا فى بلبلة واضطراب طغيا على الإنسان
فى قوله وعمله . فى حكمه وتقديره . وسنعرض لذلك فى
أحاديثنا المقبلة .

٢ - الإنسان المصرى . فى أسرته

سأحدثكم الليلة عن الإنسان المصرى فى أسرته ، والأسرة
بوجه عام أهل الرجل وعشيرته ، يرتبط أفرادها برباط القرابة
والنسب ، ويوثق بينهم عشرة متصلة وعواطف مشتركة .

ولا حياة لأسرة بدون حب وتعاطف . ولا قيمة لها إن دب فيها ديب الحقد والحسد . وغداؤها الدائم أخذ وعطاء ، وتساند وتعاون . ودعامتها الأولى شعور بالانتماء إليها ، فإن فقد هذا الشعور أصبحت وكأن لا وجود لها .

وهى لبنة هامة فى بناء المجتمع ، فإن صحت صح معها ، وإن فسدت قام البناء على غير أساس ، وتخضع لقانون التطور ، كانت فى الماضى كثيرة العدد متشعبة الأطراف ، أشبه ما يكون بالقبيلة أو العشيرة . متميزة الشخصية ، تحمى حماها ، وتدافع عن نفسها . وليس لأى فرد من أفرادها أن يخرج عليها . وهى المسئولة عن سلوكه وتصرفاته . ثم أخذ نطاقها يضيق شيئاً فشيئاً . فعن الأسرة الأم نشأت فروع وأسر متعددة .

* * *

وقد مرت الأسرة المصرية بهذا التطور . فرأينا الأسرة الكبيرة التى يجمعها منزل واحد ، ومائدة واحدة ، وكثيراً ما سميت دروب القرية وأحيائها بأسماء الأسر التى تقطن فيها . وأدركنا فى المدينة أيضاً بيوتاً يضم كل واحد منها مائة شخص

أو يزيد ، على رأسهم الجد والجدة أو الأب والأم . وكم كان الأب أو الجد سعيدًا بأسرته يدلل أطفالها ويربي شبابه . ويشرف على رجالها ونسائها ، الكلمة كلمته ، والرأى رأيه . يؤمن بأنه راع ، فيحرص على أن يضرب من نفسه المثل . وأن يكون قدوة لأبنائه . وقد نعمت قرانا لعهد غير بعيد بعدد من رؤساء الأسر الذين كانوا يفصلون في المنازعات . ويفضون الخصومات ، ويحظون باحترام وتقدير . ويمكن أن يقال إن أربعة أو خمسة من هؤلاء الرؤساء كانوا يسهمون في تدبير شئون القرية على اختلافها .

ثم بدأ العقد ينصرم ، وتساقطت حباته ، وانقرضت الأسر الكبيرة أو كادت في القرية والمدينة . ولم يبق منها إلا عصبيات كثيرًا ما أسىء استغلالها ، وأفسدت الصراعات السياسية والحزبية . فتنافس أبناء العمومة أو الخؤولة في ميدان واحد ، وقضى على كثير مما كان للقرابة من قداسة واحترام . وانكماش الأسرة المصرية مجارة لتطور عام لا محل لأن نعترض عليه ، والمهم أن نواجهه المواجهة التي تلائمه . وأصبحنا أمام أسرة صغيرة لا تشتمل إلا على الأب والأم والأبناء ، وليت هؤلاء الأبناء يبقون على وفائهم للآباء إلى النهاية .

ومسئولية الأسرة الصغيرة لا تقل عن مسئولية الأسرة الكبيرة ، ومما يؤسف له أن هذه المسئولية بدأت تتلاشى وتكاد تنهار . ويقع وزر كثير من انحراف الشباب على الآباء . وسبق أن قلنا إن الأب راع في أسرته . فعليه أن يرعى أبناءه جسميًا وروحياً . وأدع جانباً التربية الجسمية على ما لها من أهمية . وأقف بخاصة عند التربية الروحية التي لا نقدرها قدرها . غفل عنها الآباء . وكأنها ليست من واجباتهم . ولا أزال أذكر حديثاً لى مع أبوين فرنسيين كانا يحرصان الحرص كله على الذهاب إلى الكنيسة مع ولديهما يوم الأحد من كل أسبوع . ولا يتخلفان عن ذلك قط . ويريان أنه واجبهما نحوهما إلى أن يرشدا . وهما بهذا يلتقيان مع تعاليم الإسلام تمام الالتقاء .

والواقع أن الأسرة هي البيئة الأولى للتربية الروحية . فعلى الوالدين أن ينشئا أبناءهما تنشئة فاضلة . فيربيانهم على الصدق والأمانة ، والعفة والنزاهة ، والتواضع وحسن المعاملة . وحب الله والوطن ، وألا يلقيا عبء هذا كله على المدرسة وحدها . وفي قدوتها العملية خير مثل يحتذى . وفي نصحتها وتأنيها خير واعظ وزاجر . وكما يكون الآباء يكون الأبناء . وقديماً قالوا : من يشابه أبه فما ظلم . وكثيراً ما تنسى الأم

مستوليتها فى التربية الروحية والخلقية ، وقد تتصل منها ملقية
عبيها على الأب وحده . وعليها أن تعلم أنها – هى الأخرى –
راعية فى بيتها . وكل راع مسئول عن رعيته .

وفى تربيتنا المنزلية أخطاء كثيرة شائعة . أحب أن أشير إلى
أمثلة منها . وفى مقدمتها التدليل الزائد عن الحد . ولمرحلة
تصل إلى مدة طويلة . ولا نرى فيه خيرًا مطلقًا . لا للمدللين
ولا لآبائهم . ومن واجباتنا الأولى أن نعد أبناءنا للمستقبل .
ولحياة لا تخلو من عنف وقسوة ، وأن نحارب فيهم تلك الميوعة
المحقوته . ولا معنى لحياة لا تعرف إلا اللهو واللعب . ونخطئ
أيضًا فى التفرقة فى المعاملة بين الأبناء . فمن المخطوط الذى
ينال كل ما يريد ، والمحدود الذى يحرم من كثير . وفى هذا
ما فيه من غرس بذور الغيرة والكراهية بين أبناء الأسرة
الواحدة ، وأوضح ما يكون ذلك فى حال تعدد الزوجات .
ولعهد غير بعيد كانت البنات شبه مهملات . ثم بدأن يحصلن
على كثير من حقوقهن ، وإن كانت الأسرة الريفية لا تزال
تشكو من هذه التفرقة . وأمر آخر هو الإغضاء عن المفوات أو
التشجيع عليها ، فيكذب الطفل أو يأخذ مال غيره ، ونُعْمِضُ

الطرف عنه أو نباهى به ، ونعده ماهراً وشاطرًا ، وهذه
ولاشك شطارة بغیضة مرذولة .

* * *

ونستطيع أن نقرر أن قدرًا غير قليل من طفولة الإنسان
المصرى . بل من شبابه . ضائع بين البيت والحارة ، ضائع
فى البيوت لقصور وإهمال من الأبوين على نحو ما أشرنا .
لأسىا وقد جدَّ أمر آخر . وهو اضطلاع الأم بأعباء الحياة .
تعمل صباحًا ومساءً فى سبيل لقمة العيش . ومادما نشجع
المرأة العاملة . فلا بد أن نوفر لأبنائها وسائل الحياة والتربية
السليمة . وقدر آخر غير قليل من طفولة الإنسان المصرى وشبابه
ضائع فى الشارع والحارة . وهذه مشكلة اجتماعية خطيرة ،
وكم نشكو من جرائم الأحداث ، ونحن مسئولون عنها ،
وليس شىء أضر بالطفل والشاب من الفراغ ، وإذا لم يملأ
هذا الفراغ ملئًا صحيحًا . كان مدعاة للفساد والانحراف .
ومن أغرب ما يلحظ أن لدينا الآن حرفًا كالسباكة والنجارة
وأعمال الكهرباء بدأنا نشكو من نقص اليد العاملة فيها ، ولدينا
جموع غفيرة من الأطفال والشبان تعج بهم الحارات والشوارع

دون عمل مجد ، فهل من سبيل لأن ندرّبهم على حرفة نافعة
وعمل مفيد ، هذا واجبنا ، ولا يصح أن نقصر فيه .

٣ - الإنسان المصرى فى مدرسته

يدور حديثنا الليلة حول الإنسان المصرى فى المدرسة ونحن
نعيش جميعاً فى عصر العلم والتكنولوجيا ، ونؤمن بأن الرقى
الحضارى فى أى مجتمع رهن بانتشار العلم والتعليم فيه . وقسمة
الدول إلى متقدمة ومتخلفة يرجع خاصة إلى حظ كل منها من
العلم والمعرفة ، ولاشك فى أن التعليم يرفع من قدر الإنسان .
ويزيد ثروة الأمة المادية والمعنوية . تلك حقائق تنبها إليها فى
أوائل القرن الماضى ، وبدأنا نهضة تعليمية شاملة . لم تقف
عند المرحلة الابتدائية ، بل امتدت إلى التعليم العالى . ولكنها
لسوء الحظ لم تسر فى طريقها إلى النهاية . فلم يرعها أبناء محمد
على رعايته لها ، وجاء الاستعمار فضيق حدودها .

ومنذ فجر القرن العشرين ونشر التعليم وإصلاحه من

أهدافنا الأولى ، فتوسعنا في المدارس الابتدائية والثانوية .
أميرية كانت أو خاصة . وزدنا عدد المدارس العالية . وشاءت
الأمة أن تكون لها جامعتها الأهلية على غرار الجامعات
الأوروبية . وشغلنا بإصلاح التعليم الدينى فى الأزهر
ومعاهده . وأصبحنا اليوم ، ولنا فى كل قرية مدرسة أو
مدارس ابتدائية ترمى إلى استيعاب أبنائها جميعاً من السادسة
إلى الثانية عشرة ، وإن لم يتم هذا الاستيعاب بعد . ولنا فى
كثير من القرى مدرسة إعدادية ، وإلى جانبها فصول أو مدرسة
ثانوية . وفى كل مدينة مدرسة أو مدارس ابتدائية وإعدادية
وثانوية عامة أو فنية . هذا إلى واحد من المعاهد الدينية التى
تشتمل على مراحل التعليم العام المتلاحقة ، وهى فى ازدياد
مطرّد . وصعد عدد جامعاتنا فى السنوات الأخيرة صعوداً
ملحوظاً ، ونهدف إلى أن يكون لكل محافظة جامعتها . وكأنى
بالأزهر يرغب بدوره فى نشر تعليمه العالى . فينشئ فى
الأقاليم جامعات أزهرية إلى جانب جامعاته الكبرى فى
القاهرة . وأعتقد أنا فى حاجة ماسة إلى رسم سياسة موحدة
للتعليم عامة والتعليم العالى بخاصة . وسبق لى منذ ثلث قرن أو
يزيد أن وجهت النظر إلى هذا الازدواج ، ودعوت إلى
مواجهته مواجهة صادقة .

ومنذ أن قلنا بمجانية التعليم . والإقبال عليه في مراحله المختلفة يزيد على كل تقدير . ولا يحل عام دراسي إلا ونشكو من عجز الأماكن عن الوفاء بحاجات التلاميذ . ويمكننا أن نلاحظ بوجه عام أن نحو ما يقرب من ثلث السكان يتردد الآن على معاهدنا ومدارسنا المختلفة . ويقضى فيها سنوات لا تقل عن ست . وقد تصعد إلى الخمس عشرة . وفي هذا ما يبين أهمية المدرسة في تكوين المواطن الصالح وابن القرن العشرين . وهذه النقطة التي أحب أن أقف عندها .

وللمدرسة مهمتان أساسيتان : تعليمية وتربوية . وقد كثر الكلام حول المهمة الأولى . ويظهر أن العبء زاد علينا كثيرًا . وأصبحنا نشعر بأن المدرسة في وضعها الحالي لا تستطيع أن تؤدي هذه المهمة على وجهها . ويكفي أن نشير إلى الدروس الخصوصية المنتشرة في القرية والمدينة ، وهدفها الأول أن تكمل نقص المدرسة . أو أن نشير إلى مكافحة الأمية التي دعونا إليها منذ نصف قرن . ولم تسهم فيها المدرسة بنصيب ملحوظ ، فلم تقف الأمية عند الشيوخ والمسنين ، بل امتدت إلى الشباب والناشئين ، وكأن المدرسة تهدف إلى تخريج أميين . ولا أشك في أن القائمين على أمر التعليم أنفسهم يشعرون

بهذا ، ويرغبون في معالجته ، ونرجو لهم التوفيق .

وأوثر أن أقصر حديثي على المهمة الثانية ، وأخشى أن أقول إن مدارسنا في مختلف درجاتها قد غفلت عن مهمتها التربوية ، ولا تتردد في أن تلقى عبثاً على البيت . وقد قلت في حديث سابق أن البيت يتصل هو الآخر من واجبه التربوي ، ويلقى به على كاهل المدرسة ، وبذا ضاع النشء بين الجانبين . والتربية الخلقية والروحية تقوم على أساسين : قدوة صالحة ، واتصال مباشر بين الأستاذ والتلميذ ، أو كما يقول الصوفية بين الشيخ والمريد . ولا أزال أذكر كتاب القرية ، على ما كان فيه من عيوب تعليمية ، فقد اكتملت لشيخه هاتان الوسيلتان ، فحاول ما استطاع أن يكون قدوة ، وحظى باحترام ملحوظ ، ولم يكن عبثاً أن يسمى «سيدنا» . واقتصر درسه على عدد محدود من التلاميذ قل أن يزيد على العشرين ، فكان يعرفهم عن قرب بأسمائهم وأسرهم ، ويكشف عن عقدهم ومشاكلهم ، ويتصل مباشرة بأولياء أمورهم . أنا لا أقول بالعودة إلى «كتاب» القرية ، ولكن قصدت فقط أن أستخلص منه بعض الدروس النافعة .

وما أحوجنا حقاً إلى أن نعنى عناية خاصة بالقدوة الصالحة

فى معاهدنا ومدارسنا . وعرفت أستاذًا جليلًا كان يرى أن يوكل أمر الروضة والمدرسة الابتدائية إلى المسنين من المعلمين والمعلمات ، طمعًا فى هذه القدوة . ولا يتوقف الأمر فى الواقع على السن وحده ، بل يعتمد أساسًا على السلوك والمثل الطيب . والقدوة قول وعمل ، ولا قيمة لقول يناقضه الفعل . فهل تحظى مدارسنا بهذه القدوة ؟ وهل نرعى سلوك الأطفال والشبان رعاية تامة ؟ إن وجد شيء من ذلك فهو جد ضئيل ، وربما قابل بضرب من الفكاهة والتندر . وأذكر شيخًا من شيوخ المربين كانت تمتد رقابته فى معهد عال إلى الزى والملبس ، والنطق والتعبير . فأين نحن من هذا ؟

أما الاتصال المباشر فقد أصبحنا ولا سبيل إليه إزاء تلك الأعداد الكبيرة فى فصول المدرسة ، أو فى مدرجات الجامعة . وكيف يتصل المعلم بأربعين تلميذًا أو يزيد فى الفصل الواحد بالمدرسة الابتدائية أو الثانوية ؟ وأين يجد الوقت للتحديث معهم ومعاشرتهم معاشرة حقة ؟ وأنى له ذلك وأعباء الحياة تجتذبه يمينًا وشمالًا ؟ وما أشبه مدارسنا ومعاهدنا اليوم بالورش الصناعية والأسواق العامة التى لا نسمع فيها إلا ضجيجًا وجلبة ، فلا نحس بسلوك خاص ولا بحياة روحية . ومشكلة

العدد في مدارسنا اليوم أصبحت خطيرة ، وحولت تعليمنا إلى قشور لا تغذى العقل ولا الروح في شيء يذكر ، ولا بد أن نعود بفصول الدراسة إلى أعدادها المعقولة .

* * *

والمدرسة في حاجة ماسة حقاً إلى جو خاص يميزها من الأجواء الأخرى . جو يسوده الهدوء والسكينة : تطمئن إليه النفس . ويعنى فيه بآداب السلوك قولاً وعملاً ، وبالتنويه بالأخلاق الفاضلة . وبتقديم النماذج الحقة للحياة العملية . ويكسى بكساء روحى واضح فيما يقدم للنشء من دروس وقصص . وما يعلم من طاعات وعبادات .

٤ - الإنسان المصرى فى القرية

نحن الليلة مع الإنسان المصرى فى القرية . وقد كانت هذه القرية ولا تزال دعامة المجتمع المصرى وصمام أمنه ، احتفظت بتقاليده . وقدست تراثه - نفرت من التطور السريع

المفاجئ . وأنكرت الاستهانة بمجد الآباء . وحالت دون طغيان المدينة الزائف ، وهذبت من حواشيه . ومن عاداتها وتقاليدها ما يرجع إلى مئات السنين ، بل إلى الآلاف ، ومن بين قرانا ما لا تزال نلمس فيه مسحة من مخلفات قدماء المصريين . أما الطابع العربى فأشمل وأوضح ، وله بيئات لا تزال تحرص عليه وتعززه . وكثيراً ما شمخت بأنفها . وإلى عهد غير بعيد . يوم أن كانت معفاة من الجندية ، ويوم أن كانت لا تفر اختلاط الأنساب بين البدو والفلاحين . ومن حسن الحظ أن تلاشى هذا كله . وأصبح القرويون يعيشون في وحدة شاملة ، ويشعرون جميعاً بأنهم في آن واحد عرب ومصريون .

وقد مرت القرية المصرية بمحنة أخرى عانتها زمناً طويلاً . وتحملت في صبر وجلد ، ويا لها من مجتمع مسالم صبور . وتلك هى محنة الفلاح والتركى ، وهى تفرقة ترجع إلى قرون مضت . يوم أن كان الحاكم أو الوالى سيداً ، والرعية مسودة ، يوم أن كان يملك البر والبحر ، والكل خدم له وحشم . وقد فعل الزمن فعله في هذه التفرقة البغيضة . واستطاعت القرية أن تمتص هذا كله ، فنسى التركى

جنسيته . وأصبح مصريًا صميمًا ، ونسى الفلاح ما حلّ به من بطش وجبروت . ومصر من أقدر البلاد على امتصاص الغرباء ، لا يشعر الوافد إليها بوحشة . ولا يكاد يمضى عليه جيل أو جيلان حتى تمتصه هذه الأرض الطيبة . ويصبح وكأنه ابن من أبنائها الأصليين .

وابن القرية شديد الارتباط بترابها . يعشقه على القرب . ويحن إليه على البعد . وفي هذا ما فيه من التعلق والانتماء . وإلى عهد قريب ما كان يرغب في الرحلة بعيدًا عن وطنه . ولا يرحب بالنقلة . وإذا ما قدر له أن ينتقل أو يرحل لعمل أو ضرورة سرعان ما عجل بالعودة والرجوع . ولم تمتد الهجرة الخارجية إلى القرية كثيرًا . ووقفت في الغالب عند المدن والسواحل . وفي هذا ضرب من الحماية والصيانة . أما الهجرة الداخلية فتبادلة . وربما حملت دمًا جديدًا لا يخلو من نشاط وحيوية . وبقدر ما أخذت القرية أعطت . وربما كان عطاؤها أسخى . فغذت المدن القديمة والحديثة بغذاء لا ينقطع . وأمدتها بعمال وصناع . أو بصفوة من المتعلمين والمثقفين . ولا تكاد توجد مدينة مصرية إلا وفيها بصمات ريفية من أعالي الصعيد أو من أطراف الوجه البحرى . وخفت تلك التفرقة بين

الحضرى والريفى . وانمحت أو كادت تلك المقابلة بين
الصعيدى والبحيرى .

ولاشك فى أن فى هذا التلاقى خيرًا وبركة . ومساواة بين
أبناء الوطن الواحد . ولكن القرية لم تأخذ حظها من العمران
والحضارة . وبقيت إلى عهد قريب شبه كم مهمل . فلم تجار
المدينة فى ازدهارها . ولم يتوفر لها ما ينبغى من وسائل العيش
والحياة . وكثيرًا ما هجرها من رحلوا عنها من أبناءها . وقد
كانوا يحرصون بالأمس على أن يكون لهم فيها موطن وسكن .
وزاد هذه الهجرة خطرًا أن بعض شيوخ القرى ومن كان لهم
شأن فيها قد استهواهم بريق المدن . فنسوا قراهم نسيانًا تامًا
وانصرفوا عنها . وفى كل ذلك ما يلقى أعباء جساما على الحكم
المحلى الذى نأمل أن ينهض بالقرية نهضة حقيقية . وأن يزيل
ما نلاحظه فيها من وصمة فى جبين الوطن كله . وأنخسى ما
نخشاه ألا تقدر الهيئات الإقليمية رسالتها حق قدرها . وأن
يركز الحكم المحلى . هو الآخر . على المدن . وتبقى القرى فى
زوايا النسيان .

وتعميم مياه الشرب . وبسط شبكة الكهرباء فى الريف
من الوسائل الناجعة قطعًا للنهوض به . ولا بد أن يصاحبها

عناية كافية بالطرق لأهلها شريان الحياة . وللمشآت الصناعية . دون نزاع . شأن كبير في دفع عجلة النهوض والتقدم في الريف بأسره . وقد خطونا في الثلاثين سنة الماضية خطوات لا بأس بها في سبيل نشرها وتوزيعها على القطر جميعه . وما أحوجنا لأن نضع لذلك خطة شاملة وثابتة . وتجاربنا خلال نصف قرن أو يزيد تشهد بأن البيئات الصناعية تحمل معها النور والعرفان . والنهوض والتقدم . ويكفي أن نشير إلى المحلة وكفر الدوار في الوجه البحري . أو إلى الحوامدية وأسوان في الوجه القبلي . وقديماً قالوا : ينبغي أن نعيش قبل أن نتفلسف . ولا سبيل إلى نهوض أدبي بدون دعامة مادية .

* * *

هذه هي القرية في بعض جوانبها الاجتماعية والمادية . ولا ننكر أنها خطت في الخمسين سنة الأخيرة خطوات في سبيل النهوض والتقدم . ونريد لها متابعة السير واطراد الخطى . والإنسان المصري ابنها ووليدها . وقد تخلص من عقدة الريفي والحضري . ومن عقدة الفلاح والتركى . وتخلص أيضاً من

عقدة الصعيدي والبحيري . وسبق لهذه العقدة الأخيرة أن أثارت ما أثارت من حساسية . وكان لها دخل في بعض الهيئات السياسية . وصدي في بعض التشريعات . وخاصة ما اتصل منها بتوزيع المحاصيل وإقامة المنشآت العامة . وأصبح الإنسان المصري في القرية يحس اليوم بأنه مصري وعربي . ولا يبالي بعد هذا بشيء . لا بفرقة اللون ولا باختلاف اللهجة . وبدأ يشعر بشيء من متاع الدنيا . وإن كان لا يزال دون المستوى .

ونتساءل الآن هل استمسك في مسيرته هذه بما عرف في بيئته من قيم وتقاليد ؟ تلك هي المشكلة . وينبغي أن نواجهها في صراحة . وأظننا نتفق على أن القرية فقدت بعض معالمها . فقدت كثيرًا من مظاهر الود والتعاطف التي كانت سائدة فيها . وحرمت من دعاة الحب والوثام بين بنيتها . طغت عليها نزعة مادية قاسية . وأصبحت لا ترعى ما كانت ترعاه قديمًا من جوار وقراة . فنافس الأخ أخاه . وأضاع الجار جاره . قل احترام الصغير للكبير . وضعف عطف القادر على المحتاج . وذهبت تلك القيادات الروحية والاجتماعية التي كانت دائمًا رسل سلام ومحبة . ومن لنا في مسجد القرية بإمام ناصح

أمين . وفى مدرستها بمرب مخلص صادق . وفى إدارة شئونها العامة بعمدة يحب الخير للناس كما يحبه لنفسه . يؤلف القلوب ويوحد الصفوف . لا نريد من هؤلاء الثلاثة أن يكونوا مجرد موظفين . بل نريد بهم ولهم أن يعيشوا حقاً مع من حولهم . وأن يحسوا بإحساسهم . ويشعروا بشعورهم . إياهم إن فعلوا عادوا بالقرية إلى ذلك المجتمع الهادئ السليم . ونشأوا من بنيتها من يحب أخاه وجاره . ومن يرفع الله والوطن .

٥- الإنسان المصرى فى المدينة

نريد جميعاً بناء الإنسان المصرى بنياناً قوياً متيناً . وسبيل ذلك أن نتبعه فى ميادينه المختلفة ، فنبين ما هو عليه . ونكشف عن مواطن ضعفه ، ونرسم لها ما نرجوه من علاج . وقد عرضنا فى أحاديث سابقة للإنسان المصرى فى البيت وفى المدرسة ، ثم وقفنا عنده قليلاً فى الريف والقرية ، ونريد الليلة أن نتحدث عنه فى الحضر والمدينة . وللحضر مشاكل

وصعوبات لا تقل عن مشاكل الريف ، ولا غرابة فالمدينة مجتمع سكاني أشد كثافة ، وأكثر تنوعًا ، وأسرع تطورًا . وهي بطبيعتها مفتوحة لأخلاط من الناس فيهم الخبيث والطيب . وليس من اليسير التفرقة بينهم ، وفي إمكانهم أن يختفوا في جوانب المدينة المتعددة . وقل أن تجمعهم صلة أو يربطهم رابط . اللهم إلا أن يكونوا أبناء حرفة واحدة ، أو أن يلتقوا عند مصالح مشتركة . وحياة المدينة في الجملة أعنف . والتنافس فيها أشد ، والتيار جارف ، ومغرياتها لا تحصى .

والمدن رمز الحضارة ، وشارة المجد والسلطان ، ولكل حضارة مدنها ، وربما اقتصر تاريخ أمة على حياة مدينة أو مدينتين من مدنها . ومن المدن ما عمر على الزمن ، وجاوز حياة أمة بعينها ، وربط التاريخ القديم بالتاريخ المتوسط والحديث . كأثينا ، وروما ، والإسكندرية . ويوم أن نشر الإسلام دعوته أخذ يؤسس المدن ، ويمصر الأمصار ، فأسس أولاً الكوفة والبصرة ، وهما مدينتان لها تاريخ حضارى وثقافى زاهر ، وتلتها الفسطاط والقيروان ، ولكل واحدة منها دور حضارى كبير ، وفي أخريات الثلث الأول من القرن الثانى للهجرة أسس المنصور بغداد التى أصبحت العاصمة الكبرى

للعالم الإسلامى جميعه . وفى منتصف القرن الرابع الهجرى .
أنشأ الفاطميون القاهرة المعزية . وكأنما شاءوا أن ينافسوا بها
بغداد . وفى آثارها الباقية ما يسجل صنيع من تولوا أمرها من
حكام وولاة . ولسنا فى حاجة أن نشير إلى جمال الفن
الإسلامى وروعته . ومما يؤسف له أنا لم نرعه حق رعايته .
وكم قضينا على مباني وأحياء كانت تراث الماضى وذخر
الحاضر .

وتسير بيننا حركة تحضير نشيطة ، فتحول بعض القرى إلى
مدن . أو تنشأ من جديد مدن أخرى بمعزل عن القديمة .
وندع جانباً ما أخذ على هذا التحويل أو الإنشاء من
ملاحظات اقتصادية واجتماعية وفنية . ومن عاصروا إنشاء
مدينة الأوقاف مثلاً يذكرون ما دار حولها من نقد وتجريح ،
وما صادفها من صعاب قضينا وقتاً غير قصير فى تذليلها .
ونرجو ألا نبدأ فى أى تعمير حضرى قبل أن يستكمل درسه
ونعد له عدته . ويعيننا هنا أن نشير إلى أن المدينة بدأت تطفئ
على القرية طغياناً ملحوظاً . وبالأمس القريب كان سكان
المدن لا يمثلون إلا نسبة محدودة من سكان القرى ، وها هم
أولاء اليوم يكادون يعادلونهم . وأخشى ما أخشاه أن يزيدوا

عليهم . أخشى ذلك إبقاء على ثروتنا الزراعية التي تشكو فعلاً نقصاً في الأيدي العاملة ، وحفاظاً على التربة التي نريد لها أن تنمو وتزدهر . بدلاً من أن تهمل وتهجر . وأخشاه أيضاً خوفاً من التطور المفاجئ الذي تشجع المدينة عليه وتجبب فيه ، وحرصاً على قيمنا وتقاليدها التي ترعاها القرية رعاية أدق وأكمل .

* * *

والحق أن المدينة أسرع تقبلاً للطارئ والدخيل ، تلجأ إليها الجماعات السرية ، وتحتوى بها الخلايا الهدامة . يتسع صدرها للنظم الغريبة والدعايات الضارة ، ويمكن ربطها بشبكات خارجية أو داخلية . وفي جلبتها وضوضائها ما يصرف الأنظار عن وسائل الغش والخداع ، وما يعين على التفنن في الإعداد والتدبير . وبالأمس القريب كان أمن الريف شغلنا الشاغل . ووقفنا عند بعض أحداثه وقفات طويلة ، وفيها ما أمد كتاب القصص والروايات بمادة غزيرة . واليوم نشكو بخاصة ونحذر حقاً من اضطراب الأمن في المدينة ، وكثيراً ما عز علينا الكشف عن المخائئ والأوكار ، وقد لا نهتدى إليها إلا بعد أن تشتعل النار ويتطاير الشرر .

وفي المدن أمر آخر نبالغ فيه ونتوسع في إباحته ، وكأنا
لا نحس بضرره وخطورته . ألا وهو المقاهى والأماكن العامة
للسهر والتسلية ، وقد ضربنا فيها رقماً قياسياً لا أكاد أجد له
أشباهاً تذكر فيها زرتة من مدن عربية أو أجنبية . ومما يؤسف له
أن وراء إنشاء هذه الأماكن محترفين يعرفون كيف يصلون إلى
غايتهم . فتفتح أمامهم الأبواب وتحل العقدة . ولست في
حاجة أن أشير إلى ما في هذه الأماكن من مضيعة للوقت
والمال وإفساد للخلق . وكأنا نشجع على التعطل والكسل
ونرخص لها . وعبثاً نحاول إن شددنا الرقابة على هذه
الأماكن . مادمننا قد أقررناها وسلمنا بها ، وبور الفساد لا بد
أن تنشر سمومها وتؤدي وظيفتها . ولشارع الهرم على سبيل المثال
سمعة أضحت مع الأسف عالمية ، ولا تخلو من تندر وفكاهة
يلهج بها الأجانب والدخلاء . ولا نزاع في أن عددًا غير قليل
من شبابنا يذهب ضحية لهذا اللهو والإغراء ولا يجدى في شيء
وعظ الوعاظ ولا نصيح الكتاب . مادامت بور الفساد قائمة .
أنا لا أرفض الترويح عن النفس ، ولا أحارب التسلية .
ولكني أريد بها أن تكون بريئة وهادئة ، وأن توضع لها
ضوابط وحدود . فمثلاً بدلاً من أن نضبط صغار التلاميذ
الذين يفرون من مدارسهم ويلجأون إلى دور السينما صباحاً

أولى بنا - كما صنع غيرنا - أن نحدد أعمارًا لدخول هذه الدور . وهذه ولاشك رقابة مجدية .

ولديا تجمعات أخرى كالأندية الرياضية ودور النقابات والهيئات العامة . وهي في حاجة إلى قدر غير قليل من الضبط والتنظيم . وفي وسعنا أن نفيد منها ثقافيًا واجتماعيًا . إلى جانب ما ننشده فيها من ترويح وتسلية . وجانبها الثقافي شبه معدوم . وفي الإمكان أن نستخدمها لتحقيق أهداف شتى ، كمكافحة الأمية ، أو توسيع الأفق . أو زيادة المعلومات العامة . ومما يؤسف له أنه لم يبق فيها للسلوك والمظهر الشخصي اعتبار يذكر . وهناك أندية كانت تلتزم في الماضي شرائط معينة في الزي والملبس . ولا نزاع في أن المستوى الأدبي في بعض الأندية أصبح أدنى مما كان عليه بالأمس . وأدع جانباً الألفاظ والعبارات . والإشارات والتعليقات ، ففيها ما يحمر له الوجه ، ويندى الجبين . وكأنما أصبحنا لا نشعر بهذا ولا نبالي به . وفي طرقنا وشوارعنا ، وفي مجتمعاتنا وأنديتنا ألفاظ سوقية . وعبارات جارحة لم نكن نسمعها من قبل . ولا تليق بمجتمع مهذب بحال .

* * *

إن بناء الإنسان المصرى عمل طويل وعسير . يبدأ من
المهد . ويمتد إلى اللحد . وليس شىء أضر به من الاستهانة
والاستهتار . ومن المخزى والمؤلم أن نهزل والعالم كله يحد .
فلنأخذ الأمور فى جد إذن ، ولنحاسب على الصغيرة
والكبيرة . وكثيراً ما تولدت أمور خطيرة عن مسائل تافهة .
علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب غيرنا ، وأن نصرب
المثل العملى . دون أن نقنع بالمواعظ والحكم . وما يزع
السلطان أكثر مما يزع القرآن .

٦- الإنسان المصرى فى المصنع

فى حياتنا الحاضرة تجمعات مختلفة وتخصصات متعددة -
ولعل التجمع الريفى فى تاريخ البشرية من أولها نشأة وأقدمها
زمنًا . ثم قامت إلى جانبه تجمعات أخرى حرفية ومهنية .
نشأت أولاً محدودة العدد . سهلة التكوين لا تعقيد فيها
ولا تخصص . ولا درس ولا تعلم . وسبيلها ضرب من
المحاكاة والتقليد . وربما جمع الفرد الواحد بين حرفتين أو

أكثر ، ولا يزال في قرانا ، بل في مدننا ، شىء من الحرف العائلية المتوارثة . ولم تلبث هذه الحرف أن تنوعت وتعددت ، وتعمقت وتخصصت ، وأصبح لكل حرفة طابعها الخاص . ثم تحولت إلى تجمعات صناعية أساسها العلم والدرس ، فيها أجهزة وآلات ، وفن وخبرة ، وعلم وتكنولوجيا . وكان طبيعياً أن تطفئ هذه التجمعات الصناعية على التجمعات الريفية . وأن تنافسها منافسة قوية ، وأصبحت رمزاً للنمو والازدهار . ويمكننا أن نقرر أن النهوض الصناعى هو الفارق الجوهرى بين البلاد النامية والبلاد المتقدمة .

وأود أن أقف حديتى الليلة على الإنسان المصرى فى المصنع . ولمصر صناعاتها التقليدية المعروفة من قديم ، وقد بدأ محمد على حركة تصنيع عصرية أوسع مدى وأعظم نشاطا ، إلا أنه لم يقدر لها أن تسير فى طريقها إلى النهاية . وفى أوائل هذا القرن بدأنا نفكر فى الأخذ بأسباب التصنيع الحديث . مستعينين ببعض الخبرات الأجنبية ، ودفعتنا الحرب العالمية الأولى نحو الصناعات الكبرى ، وهى عنوان الازدهار الصناعى المعاصر . واستجاب بنك مصر لذلك استجابة صادقة ، وأسهم فيه إسهاماً ملحوظاً . وانضم إليه نفر من

الرواد والمجددين ، وأدلوأ بدلوهم . وقادوا السفينة فى حزم
وحكمة . وسارت الصناعة المصرية الحديثة فى طريقها يحدوها
الأمل ، ويرعاها أصحابها فى حرص عليها ورغبة صادقة فى
النهوض بها ، يستفيدون ويفيدون . ومن الظلم أن نغبط
هؤلاء الرواد حقهم ، أو أن نتقص جهودهم .

وفى ربع القرن الأخير شاء العهد الحاضر أن يدفع حركة
التصنيع دفعة قوية . فأنشئت هيئات تخطط لها ، وأخرى
تشرف على تنفيذ مشروعاتها . وعنى خاصة بالصناعات الثقيلة
والكبيرة كصناعة الحديد . وصناعة الألومنيوم . وتوليد
الكهرباء . واستولى القطاع العام على معظم المنشآت القديمة .
وأضاف إليها ما أضاف من منشآت جديدة . وتلك ولاشك
ثورة صناعية أحدثت ما أحدثت من بلبلة واضطراب ،
ولم تخل من قصور فى التخطيط . أو تعجل فى التنفيذ ،
أو فساد فى الإدارة . ولكنها تعد حقاً خطوة هامة فى نهوضنا
الصناعى ، وعلينا أن نعززها . فنتدارك نقصها ، ونقوم
معوّجها . ونقضى على عناصرها الضعيفة أو الفاسدة ،
ونضيف إليها كل ما تحتاج إليه من جديد نافع ، وقد
تضاعفت تجمعاتنا الصناعية تضاعفاً كبيراً ، وأصبحت من

قطاعات مجتمعتنا الهامة . وفي الأمس القريب كان عمال الصناعة يعدون بالملئات أو الآلاف . وها هم أولاء يدخلون اليوم في زمرة الملايين . وفي بعض مصانعنا أعداد تفوق نظائرها في بعض البلاد العريقة في الصناعة . وما أحوج هذه التجمعات الكبيرة إلى التوجيه والإرشاد . والتعهد والرعاية .

* * *

والعامل الصناعي لبنة هامة اقتصاديًا واجتماعيًا في بنيان الأمة ، وقد عرف من قديم بالطاعة وحسن التقبل ، بالمهارة والذكاء ، بالاخلاص والتفاني . يحب عمله ويقبل عليه ، يتأني فيه ويجوده ، ينتسب إليه ويباهى به . يتعلم ويعلم ، وكم نعمت مصانعنا برؤساء ، أو «اسطوات» كما يسمون ، بدأوا من الصفر ، ولم يلبثوا أن صعدوا إلى مستوى فني ملحوظ . وكونوا حولهم أجيالاً من الصبيان والتلاميذ الذين أصبحوا معقد الأمل وعدة المستقبل . وقد شهد لعمالنا بذلك كله كل من اتصل بهم من إداريين وفنيين ، سواء أكانوا أجنب أم مصريين . وسما إنتاجنا الصناعي إلى درجة من الإتقان والجودة استطاع معها أن يغزو الأسواق الخارجية ، وأن ينافس الإنتاج العالمي .

ولكننا مع الأسف بدأنا نحس بنكسة هبطت بهذا الإنتاج عن مستواه ، وبدأ أنه لم يحتفظ بجودته . ولوحظت عليه أمور ، أخصها ظهور نقص فيه وعيوب كان يمكن تداركها . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تهاون وعدم عناية . ومنها تفاوت وحداته فلا تجيء على وتيرة واحدة . أو تفاوت أجزاء الوحدة الواحدة ، فيجود أولها ، ويضعف وسطها أو آخرها ، ويظهر أنا بوجه عام لا نغنى بالخواتيم والنهايات أو «التشطيب» كما يقولون بلغة الصناع . وقد نسيء استخدام الخامات فنخلط بها ما ليس منها خطأ أو عن سوء قصد . وفي هذا ما فيه من غش وتمويه . والنزاهة أمر ضروري في القول والعمل ، ولسنا بصدد أن نتبع في تفصيل جوانب النقص في إنتاجنا الصناعي ، وإنما قصدنا أن نشير خاصة إلى ما يتصل منها بالنواحي الإنسانية . والإنسان هو الثروة الحقيقية لكل أمة ، وبدونه لا سبيل إلى نهوض أو تقدم .

وفي السنوات الأخيرة ترددت الشكوى من الإنتاج الصناعي في القطاع العام . ولا نزاع في أن لهذه الشكوى محلها . ووراءها عوامل شتى كنقص الخامات ورداءة نوعها ، أو فساد الأجهزة والآلات وعدم العناية بإصلاحها

وتجديدها ، أو سوء الإدارة وضعف الإشراف عليها . ولكن هناك عاملاً آخر لا يصح أن نغفله ألا وهو الإنسان . فقد دللناه وتملقناه . وحرصنا على رضاه وتأييده أكثر من حرصنا على عمله وإنتاجه . واستجبنا لمطالبه بحق أو بغير حق . وقل أن نفكر في محاسبته وتقييم عمله . فاختلط المحسن بالمسئء ، وتساوى العامل بالعاطل . وأصبح الإنسان المصرى فى المصنع وكأنه لا يعرف إلا الحقوق والمطالبة بها ، أما الواجبات فلا يكاد يعنيه أمرها . وربما شجعته الهيئات والنقابات على ذلك . ولم يحاول رؤسائه والمشرفون عليه أن يضربوا له المثل الصالح . ويقدموا له القدوة النافعة . ويزداد الأمر خطراً يوم أن يساء اختيار هؤلاء الرؤساء . ويوم أن يمنحوا هم أنفسهم عن مهمتهم الأصلية إلى ملق وزلى . أو إلى سعى وراء مغنم وإثراء على حساب المصلحة العامة .

* * *

فأين نحن من العامل ورب العمل اللذين كانا يدينان لمصنعهما بالولاء والتبعية . ويؤمنان بأنهما جزء منه لا يتجزأ . وببإيهان بما يحققان فيه من جودة وإتقان . وما أحوجنا أن

نعود إلى ذلك . وهو أمر طبيعي . وخاصة بعد أن أصبح المال فعلاً مالنا ، والمصنع ملكاً لنا . فهل تؤمن بذلك حقاً ؟ يظهر أنا لم نصل إلى ذلك بعد . ويوم أن نصل إليه سنحل كل عقده . وسنتغلب على كل صعوبة .

٧ - الإنسان المصرى فى الديوان والمكتب

سبق أن عاجلت ، منذ أربعين سنة تقريباً ، مع صديقى مريت غالى ، موضوع « الإدارة الحكومية » ، وأخرجنا فيه مؤلفاً أغضب الملك وأعوانه ، وأقلق الوزراء والمستوزرين ، وفشتت من أجله دورنا ، وصودر كما تصادر كتب الدعاية الهدامة ، ويعلم الله أنه لم يكن لنا فيه من قصد إلا أن نكشف عن جوانب النقص ، وندعو إلى شيء من العلاج والإصلاح . ثم قدر لهذا الكتاب أن ينشر ويعرف ، وكان

حديث الناس زمناً ، واشتد عليه الطلب من الداخل والخارج . ولم تلبث طبيعته الأولى والوحيدة أن نفذت بعد عام أو عامين ، وكم طلب إلينا أن نعيد طبعه ، أو أن نعود إلى الموضوع مرة أخرى ، وما أكثر ما جد فيه !

والسلطة التنفيذية إن أدت وظيفتها على وجهها نشرت العدل والأمن والطمأنينة ، وحققت كثيراً مما ننشده من رخاء ورفاهية . وسارت بنا قدماً في طريق النهوض والإصلاح . وهى دون نزاع أبقي من البرامج والشعارات السياسية ، وألصق بالخدمة العامة من الأحزاب والحزبيين .

• وكان لى مرة حديث بالهند فى هذا الشأن عام ٥١ مع نهرو ، وجرت على لسانه كلمة لا أنساها بحال وهى «أن السلطة التنفيذية إن صحت كانت أعون على النهوض واستقامة الحكم من البرامج الحزبية والدعايات السياسية» ، ومن واجباتنا الأولى أن نحميها من الساسة والمتحزبين . وقال لى يوماً رينى مسن : أنا أعرف البحار ، وحلاق الصحة ، والصراف ، وشيخ الخفراء ، وإن استقام أمر هؤلاء استقام لى كل شىء .

• ومجال القول فى الأداة الحكومية ذو سعة ولها سلطاتها الثلاث المعروفة : التشريعية ، والتنفيذية والقضائية . وليس

شئ أضر بهذه السلطات من أن تختلط ، أو أن يعدو بعضها على بعض .

وقد وقفنا طويلاً في كتابنا الذي أشرت إليه عند مبدأ فصل السلطات . وسجلنا عدوان الملكية والحزبية عليه ، ومن العبث أن نتحدث عن سلطات أو عن فصل بينها في حكم دكتاتورى . وأكدنا ضرورة الاستمساك باستقلال القضاء واحترامه ، ودعونا إلى توحيدده ، وإنشاء مجلس الدولة . وقد أخذ فعلاً بما دعونا إليه ، فأنشئ مجلس الدولة عام ٤٦ ، ووجد القضاء بعد ذلك يوضع سنين . بيد أن هذا لم يمنع الحكم الدكتاتورى من العدوان عليه والتنكيل برجاله - أما السلطة التنفيذية فقد عينا فيها خاصة بأمرين هامين : أولهما وضع الرجل الصالح في المكان الصالح ، وثانيهما التخلص من المركزية وتمكين كل عامل في الدولة من تحمل مسئوليته . ولم يسلم هذا بدوره من عدوان أثر عدوان ، فهل لنا ، ونحن نتحدث دون انقطاع عن التصحيح ، أن نتلافى أخطاء الماضي . وأن نحول دون وقوعها .

* * *

ولن أعرض في حديثي الليلة للسلطة التنفيذية في شتى جوانبها ، بل أقصره على الإنسان المصرى فى المكتب والديوان . وإذا كنا قد شكونا فى أحاديثنا السابقة من سوء تربيته وتكوينه فى البيت والمدرسة ، ومن اضطراب أحواله فى القرية والمدينة ، ومن ضعف إنتاجه فى الحقل والمصنع . فإن شكوانا منه فى الجهاز الإدارى أشد وأعظم . فهو لا يقدر الخدمة العامة التقديس اللائق بها ، ولا يؤمن بأنها ضريبة واجبة الأداء . وعلى أحسن وجه . وكل هم أن يسد الخانة . وأن يثبت الحضور ، وأن يتحایل على الغياب . ولو خشى الله وخشى الناس لأدى الأمانة على وجهها ، وكيف يخشى الله وقد بعد عنه . ولا سبيل لأن يخشى الناس مادام قد انمحق من قاموسنا الإدارى فكرة الجزاء والعقوبة .

وهذا الإهمال ملحوظ فى مكاتبنا ودواويننا على اختلافها . وأقبح ما يكون إذا وقع فيه المسئولون ومن هم فى مراكز القيادة . وأذكر فى حديث لى مع المرحوم إسماعيل صدقى . وكانت الوزارات حين ذلك تسعا فقط ، أنه قال : أعطنى تسعة وكلاء وزارات يعرفون واجبهم ويقدمونه . وأسألنى بعد ذلك عن الجهاز الإدارى وسيره .

ولا أتحدث عن النظام والترتيب ، فنحن فيما يبدو نعشق
الفوضى ، فوضى في تسلم الطلبات والمستندات ، وفي حفظها
وتسجيلها ، وكم شك أصحاب الحاجات من ضياع
أوراقهم ، وأظن أنه قل بين الممولين مثلاً من يعتمد على
بيانات مصلحة الضرائب لإثبات ما سدد من استحقاقات.
وأقسام الصادر والوارد والأرشف بوجه عام موضع شكوى في
مصالحنا المختلفة ، وهناك فوضى أخرى في المكاتب وتوزيعها ،
وفي الزائرين واستقبالهم ، فتختلط الأقسام والإدارات ،
وتزدحم المكاتب ، فلا يؤدي عمل ، ولا تقضى حاجة .
ويستقبل الزائرون بغير حساب ودون تقيد بموعد معين . وأدع
جانباً الأكل والشرب ، فهما مباحان في المكاتب إباحة
مطلقة ، ولا مانع من أن يبيع الشخص ويشترى في مكتبه
بعض ما يحتاج إليه .

والوقت والمواعيد لا قيمة لها ، فتحدد ساعات الحضور
والانصراف ولا يبالى بها ، ولا نكاد نفرق في إدارة
أو مصلحة بين الخارج والداخل . وليتنا نقف تلك اللحظات
التي نقضيها في المكتب على المطلوب ، فقهوة الصباح
ضرورية ، وقد تليها قهوات أخرى ، ثم يحىء طعام

الإفطار ، ولا بأس من أن نقرأ الصحيفة ونقف على أخبار الدنيا ، وفي خلال ذلك كله سمر وتسليه يقطعان الوقت ويعطلان العمل . ومن اليسير التخلص من طلبات الجماهير بالتأجيل إلى الغد ، والغد في عرف الدواوين ليس يقرب . وقد ننجح أيضاً في تأجيل طلبات بعض الرؤساء والمشرفين وبارك الله في بكرة . فهي تعفينا من كل طلب عاجل . ومن شاء أن يقضى حاجته ، فعليه أن يلجأ إلى وسائل قد تكون غير شريفة ، ومن لا واسطة له لا يستمع إليه .

وأذع جانباً الجهل وقلة الخبرة اللذين تفشيا في مصالحنا ودواويننا تحت ضغط أصحاب النفوذ والأنصار والاصهار . وهناك من لا يقنعون بالعمل الذي يحسنونه ، ويأبون إلا أن يقفزوا على حساب غيرهم إلى مناصب أسمى ، وكثيراً ما أجيبوا إلى رغبتهم دون رعاية لظروف العمل ومتطلباته . وفي المسابقات والاختبارات التحريرية والشفهية ما قد يكبح جماح هذا الطغيان . ولكن هل يؤمن الطلاب والمتسابقون حقاً بنزاهة هذه الاختبارات وعدالتها ؟ واجبنا أن ننتهي بهم إلى ذلك .

* * *

هذه صورة قائمة ولاشك ، وفي شئوننا الإدارية ما يبعث
حقًا على الأسى والأسف . ولكن لكل داء دواء ، ودواؤنا
الحقيقى أن نحسن الاختيار . وأن نحكم الرقابة والإشراف ،
فنضع الرجل الصالح فى المكان الصالح ، ونكافئ المحسن على
إحسانه ، ونحاسب المسئء على إساءته ، ولم يبق محل لإهمال
أو تأجيل . ولو أنصف الناس استراح القاضى . وبات كل
راضيًا عن أخيه .

٨ - الإنسان المصرى المواطن

الوطن غال كما يقولون ، وحب الوطن من الإيمان . وقد
عرف المصرى بحبه لوطنه ، فهو لا يكاد يبرحه ، ولا ينشط
كثيرًا للرحلة والانتقال عنه . وإذا ما اضطر لسفر خارج البلاد
عجل بالعودة ما استطاع .

وكم سعدنا أخيرًا بتلك الحركة النشيطة التى دفعت العامل
المصرى لأن يغزو مبادىن العمل فى الأقطار الشقيقة . وإن كان

يعتبر نفسه ضيفاً عليها دائماً . أما الهجرة الجماعية فالمصريون من أقل الشعوب إقبالاً عليها . ولهم فيها تجارب حديثة . وهى أقرب إلى التهجير منها إلى الهجر . ولا نزال نرتقب نتائجها .

وقد عرف المصري كيف يضع طابعه على وطنه منذ آلاف السنين . فبنى فيه قديماً الأهرام وأقام المسلات والتماثيل . وشق حديثاً الترعة والجسور . وأنشأ القناطر والخزانات .

وتواردت عليه عناصر وجنسيات مختلفة من الشرق والغرب . فامتص ما اختلط به منها . ومصره تمصيراً كاملاً . بعد جيل أو جيلين . وما بقى منعزلاً عنه من الغزاة والدخلاء . كثيراً ما كانوا مبعث تندر وفكاهة . ونستطيع أن نقرر أن دعوى العنصرية لم تجد في مصر سوقاً رائجة قديماً أو حديثاً . وقد عرف النيل كيف يربط أبناءه برباط وثيق . ومنذ أن جمع مينا بين أبناء الشمال والجنوب . لم تنفصل وحدتهم . وكان الجنوب يمتد إلى السودان الشمالى بأكمله . والصعيدى والبحيرى أبناء وطن واحد . وفوارق الحسب والنسب مؤقتة وزائلة . وترجع في الغالب إلى فوارق جاه ومال . ومال الله غاد ورائح . وقرانا متشابكة بسلاسل نسب متبادلة . وفي كل أسرة فقيرها وغنيها . ولا يعرف الإسلام فوارق الدم بجال .

« كلكم لآدم وآدم من تراب » . ورحم الله عمر بن الخطاب
الذى استدعى إلى مجلسه من زعم أنه ابن الأكرمين . وطلب
إلى من اعتدى عليه أن يقتص منه .

وقد غرس الإسلام فينا بذور التسامح الدينى ، ونماها
المصرى بما فطر عليه من عطف وسماحة . ويكفينا شرفاً أن
محمدًا صلى الله عليه وسلم صاهرنا ، وأصبحت مارية القبطية
أم ولده إبراهيم . ولا أظن أن قدماء المصريين ضاقوا ذرعاً من
الناحية العقائدية بمن غزوهم من هكسوس ويونان ورومان ،
واستطاعت جالية يونانية كبيرة أن تستوطن شمال الدلتا على
مقربة من الإسكندرية قبل الميلاد ، ومن اليونانيين من يباهى
بمصريته إلى اليوم .

ووجدت المسيحية في مصر منذ عهد مبكر ملجأً ومقرًا
هادئًا ، وعرفت كيف تتآخى مع الإسلام ، واستعان المسلمون
بكثير من المسيحيين في أعمالهم وهدواوينهم . وفي القرية المصرية
اليوم صورة لتسامح دينى صادق ، « لكم دينكم ولى دين » .
فالمسلم والقبطى يتجاوران فى المسكن ، ويتشاركان فى العمل
ويتقاسمان السراء والضراء . واستطاعت ثورة سنة ١٩ أن ترد
كيد المستعمر الذى عمل على التفرقة بين الطرفين ، وأن تجمع

في قوة ووضوح بين الصليب والهلال . ولا أنكر أنه قد مرت بنا أزمات ولحظات يرتفع فيها صوت التعصب الديني ، ويلتف حولها دعاة التفرقة . إلا أنها في الغالب لا تخلو من مؤثرات خارجية وسموم طائفية ، ولم يعز على الحكماء والعقلاء أن يقضوا عليها ، وتكاد تقتصر دائماً على المدن وحدها ، وليس شيء أعون على الوحدة الوطنية من العدالة والمساواة بين أبناء الوطن الواحد . ولم يشك يهود مصر فيما مضى من حيف أو جور ، بل بالعكس نعموا بيننا بعيش رضى وحظوا أحياناً بمراكز سامية ، ثم جاءت إسرائيل وبالأعلى عليهم ، والصهيونية دون نزاع ضرب من الدعوات العنصرية ، وقديماً زعم اليهود أنهم شعب الله المختار .

* * *

وكل مواطن في حاجة إلى لقمة العيش ، وبقدر تمكنه منها واطمئنانه إليها يشتد تعلقه بوطنه . ويرضى المصرى بالقليل عادة ، فإن عز عليه ذلك فلا غرابة في أن يكفر بالأهل والوطن ، على أنه في إيمانه بالله أقرب إلى الشكر منه إلى الكفر .

ولا يضمن يجهد أو عرق في سبيل قوته ، ولا يتردد في أن يرحل من الجنوب إلى الشمال سعيًا وراءه . والوطن ملك لأبنائه جميعًا ، ولا بد لهم أن يتقاسموا خيراته ، وواجبنا أن نضع هذا دائمًا نصب أعيننا ، وأن نحسب حساب القاعدة العريضة في طعامها وشرابها . وقد خطونا في ذلك خطوات ملحوظة ، ولكنها لاتزال دون الحاجة ، ومن العبث أن نحلق من محرومين مواطنين أوفياء ، وأمر آخر ينبغي أن ننبه إليه ، وهو أن الثروات الكبيرة الطارئة أصبحت غير مستساغة وتثير ما تثير من نقد وتعليق ، بل حقد وحسد . وواجبنا أن نكشف عن مصادرها ، وأن نؤدي حق الوطن فيها . وليس شيء أضر بذوى السلطان من أن يستغل نفودهم للإثراء والمصلحة الخاصة .

ولأبناء الوطن حق متعادل في خدماته ، دون تفرقة بين غني وفقير ، وربما كان الفقير أحوج إلى هذه الخدمات ، ودون تفرقة بين ريف وحضر . وأسوأ الخدمات ما يبدو عليه أنه يتم لحساب خاص ، فيشق طريق باسم زيد أو عمرو ، أو يقام كبرى لعبور أشخاص معينين .

وقد أهملنا خدمات الريف والقرى إهمالاً ملحوظاً ، ولم

يعن بها إلا أخيراً . واذكر أنه صادفني على الباخرة في عودتي من بعثتي عام ٣٥ شاب فرنسي ، ودار بيننا حديث حول مصر وشئونها ، وركبنا القطار سويا من الإسكندرية إلى القاهرة . وكانت ملاحظته الأولى بعد أن ألقى نظرة على ريفنا أن قال أين مصر؟ ويسعدني أني كنت قريباً كل القرب منذ أربعين سنة مضت من المحاولة الأولى لإنشاء المراكز الاجتماعية في بعض القرى ، وكانت أربعة فقط . وتلتها مراكز ومجمعات أخرى . ولم يكن شأن الخدمات الصحية أحسن حالا . وهانحن أولاء ننشئ مستشفيات قروية . وأخرى مركزية ، وثالثة في العواصم والمدن الكبرى . وينتشر التعليم في الريف والقرى طولا وعرضا ، فلا تكاد توجد قرية بدون مدرسة ابتدائية ، وقد تكون إلى جانبها مدارس إعدادية ، وأخرى ثانوية فنية أو عامة ، وأصبح للحكم المحلي وزارة خاصة نعول عليها في أن تجدد وتنشئ ، وأن تشرف وتراقب .

* * *

وإذا كنا نتحدث عن حقوق المواطن ، فينبغي أن تذكر واجباته ، وعليه أن يعرفها ، وأن يؤديها ، على وجهها . وليس

ثمة حق لا يقابله واجب ، والواجبات كثيرة يكفي أن نشير إلى أمثلة منها .

وواجب المواطن الأول أن يدافع عن بلاده ، وأن يذود عن حوزته ، وقد علمنا ثلث القرن الماضي في هذا الشيء الكثير ، وأصبحت الجندية أمرًا نباهى به ، وقد كنا بالأمس نهرب منها . ولم يكن رجل الشارع في أكتوبر عام ٧٣ أقل استعدادًا للبذل والتضحية من الجندي في الميدان . وأقبح شيء في أداء هذا الواجب أن يصاحبه زهو وغرور ، ومحاولات تعد على المواطنين بدلاً من التصدى للأعداء . ومن واجبات المواطن أيضًا أن يبنى وطنه في المزرعة والمصنع والمتجر ، ولا يمكن بناء وطن بدون إنتاج وافر وسليم ، فعلى المواطن أن يحدد زرعه بحيث يباهى به الزراع داخل الوطن وخارجه ، وأن يتقن صنعته بحيث يقوى على منافسة الصناعات الأجنبية ، وأن يبيع ويشترى في صدق وأمانة ، ورحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى . ومن واجباته أن يؤمن بأن المال العام ماله ، وعليه حمايته ورعايته ، يحميه إن كان في يده ، ويرعاه إن كان في يد غيره . هو أمانة في أعناقنا جميعاً وأى عدوان عليه خيانة من المعتدى ، ومن يعرف العدوان

ولا يرده . وانقضى زمن الاستعمار الذى ربما أشعرنا بأننا غرباء
فى أوطاننا ، وأصبحت الأرض أرضنا ، ونخيراتها ملك لنا ،
ومن الحمق أن نبدها بأيدينا . ومن واجبات المواطن أن
يقدر القانون ، وأن ينزل عنده فلا يتلاعب به ،
ولا يتحايل عليه ، ولا يستخدمه فى غير موضعه . وعليه أن
ينزل عند حكمه وإن كان جائرا فى نظره ، ولتعديل القوانين
سبل معروفة غير التحايل والتهرب منها .

* * *

واجبات وواجبات ، ولا أظن أن مواطناً حقاً يجهلها .
والمهم أن تؤمن بها ، وأن نقدرها باسم الأمة والوطن .

٩ - الإنسان المصرى والعالم الخارجى

لمصر ماض مجيد ، وحاضر نرجو له اطراد الازدهار . ولها
موقع جغرافى ربطها بالعالم شرقاً وغرباً ، وهى بوجه خاص
ذات مركز معروف فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد
سعى إليها الناس من قديم ، ولا يزالون يسعون ، سعوا إليها

غزاة وفاتحين ، أو تجارًا وطلاب رزق . وخرج المصريون بدورهم إلى العالم المحيط بهم في فتح وغزو ، أو في كشف وتجارة . ولم يبق في عالمنا الحاضر قطر ناء ولا مكان بعيد ، وفي بضع ساعات يستطيع المرء أن يصل إلى العالم الجديد أو العالم القديم . ولم تنشط الرحلة والسياحة قط نشاطها الآن ، ولم تختلط الشعوب بالأمس قدر اختلاطها اليوم ، وفي هذا الاختلاط ما يكشف عن جوانب كل شعب ومميزاته . ونتساءل ما هي الصورة التي نبدو عليها أمام العالم الخارجى ؟ ويعيننا أن تكون لائقة وكريمة .

وقد كنا نشكو ، ولعهد غير بعيد ، من الحفاء والحفاة صغارًا وكبارًا ، ودعونا إلى تبرعات لتوفير أحذية لهؤلاء الحفاة ، ومنحت ألقاب تشريف لمن أسهموا في هذه التبرعات ، وإن كنا لا نعلم بدقة أين ذهبت . ومهما يكن من أمر فإن الحفاء في مدننا اختفى أو كاد ، وضاعت دائرته في القرية ، ونرجوها أن تبرأ منه تمامًا . ولا يزال زينا يستلقت النظر ، فهو متعدد ومتباين ، فيه قديم وحديث ، سهل ومعقد ، ولا يعبر عن مظهر من مظاهر الوحدة القومية . وفي ثورة سنة ١٩ اتجهنا نحو توحيدده ، وقامت بذلك دعوة صريحة ،

ولكنها فيما يظهر لم تكن قوية بدرجة كافية ، ولم تتوفر لها الأسباب ، ولم يمنحها القادة والزعماء ما تستحق من رعاية . ولاشك في أنا نسير نحو التقارب والتلاقى في زينا ، وربما كانت المرأة ، والمرأة العاملة ، أسرع خطى في هذا السبيل ، وأعتقد أنا واصلون في النهاية . ويكفى أن أشير إلى غطاء الرأس ، وقد ضيقنا به ذرعًا . وانتهينا فيه إلى حل هو أقرب إلى السلب منه إلى الإيجاب . فألغيناه وأخذنا بعري رءوسنا ، وانتشر ذلك في سرعة ملحوظة . وفي وسعنا عن طريق الملابس الجاهزة ، وهى في تقديرى ملابس المستقبل ، أن نصل إلى وحدة الزى المنشودة إن في القرية أو في المدينة ، ويستطيع الزى المدرسى والجامعى أن يعاون في ذلك معاونة صادقة ، إن درس دراسة صالحة .

وأمر آخر طال فيه الحديث ، وعقدت الندوات ، ووضعت من أجله بعض الأوامر والتعليمات . وهو موضوع النظافة ، وأعنى به نظافة الأشخاص والأشياء ، نظافة الأماكن والشوارع . وربما كانت الحياة الريفية لا تخلو من أوساخ وقاذورات ، والعناية فيها بالنظافة ناقصة أو معدومة . ولكن كيف نقبل وساخة المدن وفيها أجهزة خاصة بالنظافة ،

ولدى القائمين عليها وسائل شتى لأداء مهمتهم ، وأخشى ما أخشاه ألا يكون لديهم حس النظافة كاملاً . وهو حس يتكون منذ النشأة ، وهناك أناس توفرت عندهم وسائل النظافة ولا يعنون بها . والواقع أن النظافة عادة وتربية ، ولا بد أن يرى عليها الصغار ويؤخذ بها الكبار ، وفي منزل قدر ليس من السهل أن ننشئ طفلاً نظيفاً . وعلينا أن نتق في مدننا كل ما يحول دون النظافة ، من تكدس مواد البناء ، أو انكسار ماسورة المياه ، أو انفجار المجارى . ومن الظلم أن نلقى عبء الوساخة على عمال النظافة وحدهم . فالجماهير وعامة الشعب هم المسئولون الأول ، ولو كرهوا الوساخة لاتقوها وأزالوها . ونحن نريد في اختصار أن نباهى أمام ضيوفنا وزوارنا بنظافة مدننا ، وهناك قرى في بلاد أخرى زرناها وعشنا فيها ، وهى في غير تردد أنظف من مدننا . والسبيل الوحيد لتحقيق النظافة هو أن نشعر بها ونؤمن بأن الوساخة عيب وشىء قبيح .

وأمر ثان يتصل بالنظافة ، وهو النظام والتنسيق والترتيب . تنسيق في أشخاصنا ومظاهرنا ، تنسيق في أقوالنا وأفعالنا ، تنسيق في بيوتنا ومكاتبنا ، تنسيق في أبنيتنا وشوارعنا ، تنسيق في معاهدنا ومتاحفنا ، تنسيق في أنديتنا

ومتزهاتنا ، تنسيق في معروضاتنا ومبيعاتنا . وأقولها في
صراحة : إن التنسيق والترتيب ينقصاننا في كل شيء ، وكأنا
فطرنا على الفوضى «والهرجلة» ، فوضى في القول ، وفوضى في
العمل ، فوضى في السير في الشوارع ، وسياراتنا وقادتها
أوضح مثل على ذلك ، فوضى في المواعيد فلا ترتبط بها
ولا نحسب لها حساباً ، وفوضى في الوقت مع أنا نعيش في
عصر يكاد يقاس كل شيء فيه بالزمن . ربما كان هناك أناس
يعشقون الفوضى ، يلتقون عندها . ويستريحون إليها ،
ويزعمون مثلاً أنهم فنانون ، ولهم شأنهم . أما أن تمتد
فوضاهم إلى المجتمع والنظام العام فهذا ما لا نقبله بحال ،
ويجب محاربته أينما كان . ولست في حاجة أن أشير إلى أن زوارنا
وضيوفنا يدركون هذه الفوضى ويسجلونها علينا ، فهل آن
الأوان لأن نخجل منها ونقضي عليها .

ويتصل بهذه الفوضى الجلبة والضوضاء اللذان ابتلينا
بهما ، فنصرخ في غير ما داع ، ونتفنن في المناداة على سلعنا
بأعلى صوت ، ونطلق الكلكسون بغير حساب . وقد نتلاعب
به . أما أجهزة الإذاعة في المقهى والمنزل فبعث قلق دائم لمن
ينشدون شيئاً من الراحة ، وكثيراً ما تعلو أصواتها ولا من

يستمتع إليها . ويظهر أن حاسة السمع عندنا في حاجة ماسة إلى تربية خاصة وتعود على الأصوات الهادئة ، وفي هذا حماية وحفظ لها . وأذكر أن دراسة ، قام بها بعض المتخصصين من أطبائنا في أماكن نائية من السودان حيث لا جلبة ولا ضوضاء ، أثبتت أن حاسة السمع هناك أحد وأدق .

ولابد لي أن أشير إلى أخطاء فاحشة تقع فيها أحياناً في معاملتنا للسائحين والأجانب بوجه عام ، فنكذب في غير ما داع ، ونسرف ونبالغ ، ونضلل ونغالط ، ونحاول استغلالاً لا مبرر له ، وقد ندبر احتيالات ونرتكب سرقات . والغريب كما يقولون ، أعمى ولو كان بصيراً ، وهو أميل إلى التسليم والتصديق ، ويرحب بكل معاونة مخلصه . وأدع جانباً طلب «البقشيش» ، وأرجو أن نكون قد انصرفنا عنه . وأحذر من الألفاظ النابية والعبارات الساقطة التي قد لا يفهمها أجنبي ، ولكنه لا يتردد في البحث عن معناها . ومما يؤسف له أن هذه الألفاظ كثيرة الورد بيننا ، وهي عنوان تربية سوقية ساقطة . والسائح أو الأجنبي عين ترى . وأذن تسمع . وكثيراً ما سجل غريب الألفاظ ، أو أخذ صورة لأقبح المناظر . ولا يتردد في أن ينقل إلى بلده كل ما رأى وسمع ، فهل يرضينا أن تنقل هذه الصور عنا ؟

هذه هى صلة المصرى بالعالم الخارجى يوم أن ينتقل إليه .
وقد يسعى هو إلى الخارج سائحًا أو زائرًا . أو طالبًا لمال أو
علم . وكان لنا فى الماضى قلة من الزوار احتفظوا لبلدهم بسمعة
طيبة ، ومثلوها تمثيلًا كريمًا . أما اليوم فقد كثر العدد .
واتسع الخرق على الراقع . وأنا لا أرفض رحلة شبابنا إلى
أوروبا أثناء الصيف رغبة فى اكتساب خبرة أو حصول على
مال . ولكنى أريد لها أن تنظم وأن ترعى فيها كرامة الوطن
والمواطنين . وقد رأيت منها أمثلة لا داعى إلى سردها . ولنا
أطباء ومهندسون ، وأساتذة ومدرسون يعملون فى الخارج .
وأدعوهم إلى ألا يتنكروا لوطنهم ، وألا يكونوا حربًا على
أنفسهم . وما يحز فى النفس أن ترى جاليات أخرى متعاونة
متساندة . فى حين أن الجالية المصرية لا تخلو من تحاسد
وتنافر ، وقد قالوا من قديم : « إن الغريب للغريب نسيب » .
وإذا كانت لنا عورة فأولى بنا أن نداريها . وما يؤسف له أن
عمالنا فى الخارج ربما كانوا أشد تماسكًا من مثقفينا .

* * *

إن الحديث عن بناء الإنسان المصرى طويل . وقد وقفت
عليه تسعة أحاديث ، ولا أزعم مطلقًا أنى قلت فيه كل

ما ينبغي . ونحن ندرك أن بناء طفل واحد وتكوينه تكوينًا
سليمًا ليس بالأمر الهين . فكيف ببناء أبناء أمة بأسرها ؟ إن
هذا يتطلب جهدًا متواصلًا من الشعب والدولة . وواجبنا
جميعًا أن نأخذ أنفسنا به . وألا ننتهون فيه . فنقوم كل
معوج . ونحارب كل فاسد . ونصيب الأم والأب بخاصة من
بنيان الإنسان المصرى جد كبير . وكلى رجاء أن يكونا أهلاً
لهذه الرسالة الجليلة . وإلى لقاء قريب فى مشكلة أخرى من
مشاكلنا الثقافية والاجتماعية . وما أكثرها .

الحلقة الثالثة

بين القديم والجديد

١ - بين القديم والجديد

أحب أن أتحدث الليلة عن موضوع كثر فيه الأخذ والرد .
وتبادل الناس فيه المعارضة والتأييد . وأصبحنا نحس إزاءه
بشيء من القلق والحيرة . وأعني به موضوع الجديد والقديم .
ومن الغريب أن هذا التقابل ليس من المستحدثات ولا من
مبتكرات هذا العصر . بل هو سنة من سنن الحياة . عاش فيه
أباؤنا وأجدادنا بل عاشت فيه البشرية كلها منذ أن خلق الله
الأرض ومن عليها . ولكل مطلع شمس جديدة حسًا ومعنى .
جديد فيما خلق الله من كائنات . وجديد فيما تكشف عنه في
هذا الكون من عجائب وأسرار . جديد فيما نقوم به من خيرات
وحسنات . وجديد فيما نرتكب من معاصي وسيئات . ويجانب
هذا الجديد قديم ورثناه واستمسكنا به . وقد لا ندري كيف
ولا متى ورثناه . هو جزء منا نستجيب له ونهتدى بهديه .
نستمع له ونتبع خطاه . وقد نحاول التخلص منه . ولكننا
لا نلبث أن نخضع لسلطانه . ومن الخطأ أن نزعج أن في وسعنا

أن نبذله في يوم وليلة . وللثورات ادعاؤها المغرور في هذا الباب . فهي تزعم دائماً أن في وسعها أن تستأصل الماضي كله . وأن تمسحه مسحاً . وأن تحل محله جديداً لا صلة له بالقديم في شيء . وربما طال بها هذا الغرور زمناً . ثم ينتهي بها المطاف إلى التسليم بأن هناك مقدسات لا سبيل إلى إنكارها . وأن هناك ميراثاً من العادات والتقاليد . وثروة من القيم والمبادئ نخسر كل الخسارة إن أنكرناها أو تنكرنا لها .

إذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للجديد والقديم . ففيم الحيرة ولم القلق إذن ؟ أخشى ما أخشاه أن يكون الجديد قد اشتد طوفانه . وهل في هذا ما يزعجنا إن كانت لنا قدرة على المقاومة . وحكمة نختار بها السليم والأصلح . ونتقى بها السئ والخبيث . ولا نزاع في أن في الجديد الصالح والنافع . وفيه الضرر والهدام . والأمر بأيدينا نحن وبما يتوفر لنا من حسن تقدير وملكة اختيار . ومعارضة الجديد لمجرد أنه جديد عبث . ووقوف في طريق السير . والحياة سائرة لا محالة . وواجبنا أن نتسلح لها وأن نواجه خيرها وشرها . ولا أرضى مطلقاً أن تضعف ثقتنا بأنفسنا . فنرفض لمجرد الرفض أو نتحايل ونتهرب . وأقبح من هذا أن نتستر وراء آباءنا وأجدادنا .

لنقول إنهم لم يعرفوا هذا أو أنهم لم يقولوا به . وأين هم حتي نحكمهم في أمور لا صلة لهم بها ولو أدركوها لوقفوا منها موقفًا آخر . ولهم في الماضي مواقف جليلة ومشهودة إزاء الجديد والغريب .

وأمر آخر أخشاه . ولخشيتي ما يبررها . ألا وهو أن احترامنا للقديم يضعف واستمساكنا به يقل . وأنا لا أنكر أن في القديم خرافاته وخزعبلاته . وأن له أخطاءه وسيئاته . وفيه بوجه خاص ما لا يتمشى مع روح العصر وما لا يستجيب لمتطلباته . ولكن هل معنى هذا أن كل قديم قبيح . وهل معناه أن كل قديم مرفوض ؟ كلا وألف مرة كلا . للقديم قيمه ومبادئه . وما أجدرنا أن نستمسك بها ونحرص عليها . إن من بهرهم الجديد ببريقه ولمعانه تنكروا لها ، فوقعوا في حيرة وبلبلة . وأحسوا بفقر أخلاقي واجتماعي ، برغم غناهم المادى . في قديمنا عطف وشفقة ما أحوجنا إليهما ، عطف على الضعيف والصغير ، وشفقة على الفقير والمحتاج ، عطف وشفقة ينبعثان من القلب ويعبران عن ضمير حى . وما أحوجنا إلى ذلك في عالم تحجرت فيه القلوب وماتت الضمائر . وفي ماضينا احترام للكبار وطاعة لأولى الأمر .

والسمع والطاعة حق على المرء المؤمن فيما أحب أو كره
ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة عليه .
فهل نحظى في أجيالنا الشابة بذلك الاحترام الذى كنا نحس به
ونلمسه في أجيالنا السابقة . وهل كلمتا السمع والطاعة محبتان
إلى شبابنا كما كانتا محبتين إلى شيوحننا ؟ وهل الإيمان بالواجب
يملاً قلوبنا كما يملأ قلوب آبائنا وأجدادنا ؟ وفى القديم حياء
واستحياء كانت تحمر لها الوجوه وتستتر العورات ، وإذا بهما قد
تبدلا إلى وجوه مكشوفة ، وتحولا إلى شيء من الفجور
واللامبالاة ، إن فى قديمنا قيماً كثيرة لا أستطيع أن أدخل
الآن فى تفاصيلها ، ولكنى أحب أن أشير فقط إلى أن
حضارات أخرى حرمت منها فضلت وأضلت . ولا ألقى وزر
ازدراء القديم على الشباب وحده ، بل لابد لى أن أقرر أن
الشيوخ والآباء قصروا فى أداء رسالتهم ، وكان عليهم أن
يغرسوا فى أبنائهم احترام الصالح من تراثنا . وحبه والاستمسك
به .

* * *

لابد لى أن أشير أخيراً إلى أمر له شأنه فى الصراع بين
القديم والجديد ، ألا وهو أن هذا الصراع يتطلب قيادة فكرية

وروحية حكيمة وحازمة . وما أشد حاجتنا إلى هذه القيادة .
ولكننا لا نريد لها أن تتحول إلى حزبية وطائفية ، أو إلى
محافظين ومجددين . أو إلى يمين ويسار . وإنما نريد بها أن نلتقى
عند كلمة سواء تحمى بها القديم الصالح من الانهيار ، وتحول
دون الجديد الضار من الانتشار . نريد لها أن تعيش في
عصرها ، وأن تتسع آفاقها . وأن تجد الشجاعة الكافية التي
تحق بها الحق ، وتبطل الباطل .. نريد لها أن تسمو عن السفه
والمهاترة . وأن نفرغ في جد لدراسة أدوائنا الخلقية
والاجتماعية . وأن نتطلب لها في رفق وحكمة . إنها إن فعلت
رسمت الطريق واضحًا . وقربت مسافة الخلف بين الشباب
والشيوخ . بين المجددين والمحافظين . هذه هي رسالتها ، وعليها
أن تؤديها على وجهها .

٢ - التجديد فى الإسلام

سأحدثكم الليلة عن التجديد فى الإسلام ، ونخطئ كل الخطأ إن زعمنا أن الإسلام يرفض الجديد أو لا يرحب به . نخطئ حقاً لأن الإسلام نفسه دعوة جديدة جاءت لتهدم الوثنية وتقضى عليها . وشاءت أيضاً أن تكشف عن بعض ما أدخل على التوراة والإنجيل من تحريف أو تعديل . والإسلام عقيدة سهلة ميسرة تقرر أن الله واحد . وأن محمداً رسوله . وعباداته واضحة محددة ومحصورة . ومعاملاته تخضع لسنن الحياة والتطور . وكتابه المنزل عربى مبين . وذكر حكيم . شاء الله أن يقف به عند المبادئ العامة والأصول المقررة . فلم يفلسف العقيدة على نحو ما صنع المتكلمون فيما بعد . وفلسفتهم هذه ولاشك أمر جديد لم يعرفه الصحابة ولا التابعون ، ولم ينكره إلا نفر قليل ممن جاءوا بعدهم من الدارسين والباحثين ، ولا تزال هذه الفلسفة تدرس حتى اليوم ، وهى على كل حال لم تزعزع عقيدة المؤمنين فى شىء .

ولم يعرض القرآن للعبادات إلا في صورة أوامر عامة ومجملة . فأمر بالصلاة ودعا إلى وجوب أدائها في أوقاتها . ولكنه لم يحدد عددها ، ولم يبين أركانها ، ولم يفرق بين فروضها ونوافلها . وترك ذلك كله لفعل النبي وقوله ، وجاء الصحابة والتابعون فشرحوا هذا الفعل ووضحوا هذا القول . وأفسحوا المجال للأئمة والفقهاء ، فشرعوا ما شرعوا ، وأفتوا بما أفتوا . وكانت إضافاتهم جزءاً هاماً ومتمماً لمعالم الدين . ولا تختلف الزكاة والصيام والحج عن ذلك كثيراً ، وهي مكملات أركان الإسلام . أجمل القرآن الحديث عنها ، وترك للسنة تفصيل القول فيها . ونحن نعلم أن الصوم لم يفرض إلا في العام الثاني للهجرة ، وهذا تدرج في التشريع له حكمته . والراجح أن الزكاة فرضت أيضاً في هذا العام نفسه ، وإن قيل إنها لم تفرض إلا في العام التاسع . ولم يحج النبي صلى الله عليه وسلم إلا حجة واحدة هي حجة الوداع . ورحم الله أبا بكر الذي حارب المرتدين من أجل الزكاة ، ولم يسمح بأن يفرض في عقاب بعير . ورحم الله عمر بن الخطاب الذي رسم لبيت مال المسلمين حدوده . ومعالمه ووضع المبادئ الكبرى لعلم المالية في الإسلام . وتتابع الصحابة والتابعون في تحديد معالم هذه العبادات . وسار على نهجهم أصحاب المذاهب والفقهاء .

ففرقوا بين الصيام الواجب والمندوب ، وبين الزكاة والصدقة .
وحددوا الأموال التي تجب فيها الزكاة ، والأنصبة التي يستحق
الدفع عنها ، والنسب التي تؤخذ منها . ورسوموا للحج والعمرة
مناسكها ، وبينوا طريقة السير في أدائها . واستكملت
العبادات تشريعها في هدى الكتاب والسنة . وفي ضوء فهم
الباحثين والمقننين . وحسن تقديرهم وسلامة حكمهم . وكل
تلك إضافات جديدة لم يجد المسلمون أية غضاضة في القول
بها . بل بالعكس رأوا من واجبه أن يستكملوها .

والأمر في المعاملات أفسح وأيسر لأنها من شئون الدنيا .
وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم يقوم يأبرون النخل (أى
يلقحونه) فترك لهم معالجة ذلك على نحو ما يعرفون . وقال
كلمته المشهورة : « ما كان من أمر دينكم فإلى » . وما كان
من أمر دنياكم فإليكم » . والمعاملات في الواقع في تطور
مستمر . وكم جدت فيها ألوان لم تكن معروفة من قبل .
وظهرت صور وأشكال لم تكن معهودة . ومن ذا الذي يزعم
أن تعامل المسلمين بعد الغزو والفتح . وبعد انتشار الإسلام
شرقاً وغرباً . بقى كما هو عند الحدود التي عرفت في مكة
والمدينة . وكان لابد لمفكرى الإسلام ومشرعيه أن يواجهوا

ذلك . وأن يعدوا له عدته . فوضعوا في التشريع مناهج ومبادئ واضحة . وشرعوا لكل جديد طراً عليهم . وفي كتبنا الفقهية القديمة مادة غزيرة يمكن أن تكون أساساً لوضع قانون مدني وآخر تجارى . ولا ضير مطلقاً في أن نفيذ من تجارب غيرنا إن كان فيها ما يلائمنا ولا يتعارض مع تعاليمنا . وقديماً قالوا : شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما يخالفه . وفي أخريات القرن الماضي . طلب إلى شيوخننا أن يصوغوا تشريعنا صياغة حديثة . أسوة ببعض ما تم في تركيا . ولكنهم استعفوا ولم يؤدوا رسالتهم الواجبة . وكان لابد لنا أن نلجأ إلى وسيلة أخرى . فأخذنا ما أخذنا عن القوانين الحديثة . من إنجليزية وألمانية وبخاصة فرنسية . وعشنا معها . وبنيت عليها معاملاتنا كلها منذ قرن تقريباً .

ويظهر أنا بدأنا نحس بقصور الماضي . وأخذنا نطالب بوضع تشريعات جديدة تعتمد على الفقه القديم وحده . وأتساءل حقاً هل نحن مغرمون بالهدم والبناء ؟ وهل تعالج الشئون العامة والتقاليد الثابتة على هذا النحو ؟ أليس الأولى بنا أن ننظر في قوانيننا القائمة . فما التقى منها مع مبادئ الإسلام أبقيناه وثبتناه ، وما كان مخالفاً عدلناه وأصلحناه . ولا ننسى

أن التشريع يسير دائماً مع الزمن . ونحن نعيش في القرن العشرين . فإن تنكرنا له أنكرنا ولا حياة لنا فيه . وعلماء الفقه الإسلامى يدركون جيداً أن هذا الفقه سار فعلاً مع الزمن ، فلم يخلق في يوم وليلة ، بل لم يخلق في جيل بعينه ولا في مدرسة واحدة . آمن رجاله بأنهم قادرون على فهم مبادئ الإسلام ، وأنهم مكلفون بتطبيقها ، ففتحوا باب الاجتهاد على مصراعيه . وجاءوا بحلول عملية ، وما فاتهم لابد لنا أن نتداركه .

* * *

أظن أنه لا محل . بعد ما قدمت . أن ننكر التجديد في الإسلام ، وأصارحكم بأن من يلجأون إلى هذا الإنكار يسيئون إلى أنفسهم بدرجة لا تقل عن إساءتهم لدينهم . يسيئون إلى أنفسهم لأنهم يعطلون ما وهبهم الله من عقل وتفكير . ويقضون على ما سلم به الإسلام من حرية الفكر والاختيار . وكيف ننكر التجديد ، وقد أخذ به أسلافنا وأضافوا ما أضافوا - أو ليس صنع عمر بن الخطاب الإدارى والحضارى تجديداً نعتر به ونعول عليه ، ثم توالى بعده

المجددون والمصلحون . وقد قيل إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمور دينها . وأنا لا أقف شخصيًا عند هذا التحديد الزمني بل أنا مع من يقول : إن الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة . وفي وسعنا أن نجدد ونبتكر متى استكملنا وسائل البحث والدرس . ولا يطلب منا إلا أن نقف عند معالم الإسلام وحدوده الكبرى ولم يتردد أسلافنا وفقهاؤنا في أن يسيروا ويجددوا . ولا ضير على المرء في أن يعدل عن رأى رآه بالأمس إن تبين له خطؤه اليوم . ونحن نعلم أن للشافعي مذهبًا قديمًا وآخر جديدًا . ولم يتفق أصحاب أبي حنيفة معه في كل ما انتهى إليه . لنثق بأنفسنا . ولنساير عصرنا دون زيغ أو انحراف وإلا رمينا بالتأخر والجمود .

٣ - نهضتنا الحديثة

أختم هذه السلسلة القصيرة بكلمة عن نهضتنا الحديثة . ولست في حاجة أن أشير إلى أنا عشنا في ظلمة شبه حالكة زمانًا طويلاً ، مدة خمسة قرون ، من القرن الرابع عشر الميلادي .

إلى القرن الثامن عشر. فلا إنتاج يعتد به فكريًا وأدبيًا ، ولا ازدهار ننعم به اقتصاديًا واجتماعيًا ، ولا تجديد ولا ابتكار. ثم جاءت الحملة الفرنسية فأهبت شعورنا وأججت حماسنا ، وبعثت فينا حياة جديدة . وتلاها محمد علي وهو مجرد جندي أو قائد عسكري من قوله ، ولكن تفتحت عيناه على حضارة الدنيا ، وقدر له أن يتولى أمر مصر نحو أربعين سنة . وبرغم أنه بلى بحروب كثيرة ومضنية ، فإنه يعد بحق واضح أول لبنة في نهضتنا المعاصرة في جوانبها الاقتصادية والعمرانية والثقافية . فأنشأ ما أنشأ من مصانع ، وأقام ما أقام من قناطر وجسور . وأسس مدارس الطب والهندسة والصيدلة إلى جانب المدارس الحربية ، وأوفد إلى أوروبا ، وإلى فرنسا بخاصة ، بعثات متتالية ، وكانت أولها عام ١٨٢٦ ، واشتملت على نحو ٤٠ طالبًا لدراسة الرياضة والهندسة والطب والعلوم الصناعية .

ومن هؤلاء نشأ الرعيل الأول من دعاة النهوض والإصلاح . ونذكر من بينهم أولاً رفاة الطهطاوى (١٨٧٢) الذى جمع بين القديم والجديد ، تخرج فى الأزهر ، ثم سافر إلى فرنسا إمامًا للبعثة الأولى التى أرسلها محمد على . والتى أشرنا

إليها من قبل . ثم عاد إلى بلاده فكان شيخ المترجمين ، وأول مؤسس للصحافة المصرية الرسمية . وإلى جانب ما خرّج من تلاميذ وأعوان . حاول أن يقدم صورًا حية من الحضارة الأوروبية ، تفتح الآفاق وتقدم بعض النماذج العملية . ويمكن أن نضيف إليه معاصرًا آخر له شأن في ربط القديم بالجديد . وهو علي مبارك (١٨٩٣) الذي تخرج في مدرسة المهندسخانة ، ثم سافر في بعثة إلى فرنسا . وبعد عودته اضطلع بأعباء مختلفة . أهمها ديوان الأشغال وديوان المدارس . وهو الذي أنشأ دار الكتب ودار العلوم . ومن طريف ما كتب روايته : « علم الدين » التي ترمى إلى الملاءمة بين القديم والجديد وتقوم على مسامرات بين شيخ أزهرى ومستشرق إنجليزى يطوفان أوروبا معًا .

ولاشك في أن ربط الجديد بالقديم توثقت عراه في أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن على أيدي جمال الدين الأفغانى (١٨٩٨) ، ومحمد عبده (١٩٠٥) . وقد فهما معًا القديم حق الفهم . وقبلًا من الجديد ما لا ضير فيه ولا غبار عليه . كانا يتخذان من أنفسهما وآرائهما قدوة عملية . فكانا يجهران بدعوتهما ، ولا يخشيان في الحق لومة لائم . وقد حوربا

وطوردا . ولكن دعوتها أخذت طريقها . وآتت ثمارها .
فاستطاع جمال الدين بمقالاته المشتعلة . وبأحاديثه وسمره في
الأندية والمقاهي أن يخلق وعيًا جديدًا . وأن يبعث شعورًا
قويًا . واستطاع محمد عبده بدروسه في الرواق العباسي .
وبمقالاته ومؤلفاته أن يرسم منهجًا جديدًا في البحث
الإسلامي . لا يسلم بكل قديم لأنه قديم . ولا يقبل من
الجديد إلا ما طابت له نفسه ويتلاءم مع مبادئ الإسلام . رفع
راية حرية البحث . وضرب مثلاً رائعاً في الاجتهاد وإصدار
الأحكام . حارب البدع والخرافات ، واستنكر تفريعات
الفقهاء الخيالية . وفق بين العقل والنقل ، ونادى بالتسامح
الديني والتقارب بين مختلف الشعوب . ودعا إلى إنشاء مدرسة
القضاء الشرعي لكي تطبق منهجه وتجمع بين القديم
والحديث . ولو قدر لها أن تبقى إلى اليوم لصارت نموذجًا
يحتذى في بلاد إسلامية كثيرة .

تخرج على يدي هذين المصلحين دعاة وقادة كثيرون كانوا
مشعل النور وحملة رسالة النهوض والتقدم في النصف الأول
من هذا القرن . وأدع جانبًا لطف السيد ومدرسته ، لأنني
أخشى أن يقال إن هؤلاء كانوا ألصق بالغرب وأميل إلى

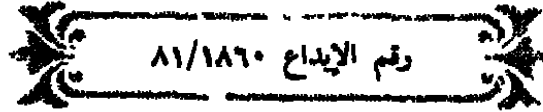
الجديد . وأحرص على أن أقدم نماذج من البيئة الدينية والنشأة الأزهرية . وفي مقدمتهم محمد مصطفى المراغى (١٩٤٥) الذى تتلمذ للأستاذ الإمام . وأشرب بروحه ، وخطا خطوات فسيحة فى سبيل إصلاح القضاء الشرعى والنهوض به . ونظر إلى الفقه الإسلامى نظرة شاملة . واختار منه ما يسد حاجات العصر ويحقق التيسير المنشود ، دون تقييد بمذهب معين . وكان له فى أخريات حياته دروس دينية تعد نموذجًا للفكر المستنير ، ومثالًا رائعًا لمواجهة حاجات العصر ومتطلباته . ومن معاصريه تلميذ آخر ربما كان أقرب إلى محمد عبده وألصق به ، وأعنى به مصطفى عبد الرازق (١٩٤٧) ، وقد تخرج هو أيضًا فى الأزهر ، ثم سافر إلى فرنسا . وقضى فيها زمنا . ويوم أن عاد إلى مصر وكل إليه شىء من شئون الأزهر ومجلسه الأعلى ، ثم اضطلع بأعباء أخرى ، وانتهى به المطاف أن أصبح شيخًا للأزهر فى أخريات حياته ، فكان واحدًا من القيادات الأدبية والفكرية ، والسياسية والاجتماعية . وينحوا فى إصلاحه منحى الرفق والأناة ، والإخاء والمساواة . وفق بين الفلسفة والدين ، ولاحظ بحق أن الفقه الإسلامى لم يخل من دعائم فلسفية . وحياته فى اختصار صورة جذابة للمسلم المصرى المعاصر .

لا أشك في أنا نلاحظ أن نهضتنا الحديثة قامت على دعامة قوية من القديم والجديد . فعرفنا كيف نلائم بينهما في حكمة واتزان . وسرنا في طريقنا في غير ما تعثر ولا طفرة . صفينا القديم مما لصقه من رواسب وشوائب . وأضفنا إليه جديدًا يدعو إلى النهوض والحركة . ويقدر القيم والمثل . وقد حظينا بقيادات روحية وفكرية لها وزنها . عرفت الدواء وأعدت له الدواء . أحسنت التوجيه . ورسمت سبل الإرشاد والتفاهم . وأنخشي ما أخشاه أن تعوزنا هذه القيادات اليوم . فبلينا في ربع القرن الأخير بنكسة لم يعرف أنصار القديم فيها إلا التشبث بأشباح باليه . ونجموح أنصار الجديد وانحرافهم إلى الغلو والإسراف . فأنكروا قيمهم . واستهانوا بمقدساتهم وربما يكون كأس الجديد قد طفح بعض الشيء . وربما كانت وراءه دسائس محكمة ودعايات هدامة . ولكن من العبث أن نواجهه بجمود قاتل ومحافظة فاشلة . وهل من سبيل إلى إحياء الموتى . أو من أمل في العودة إلى الوراء ؟

لنطرح إذن ما اطرحناه سلفًا من قديم بال . ولنستمسك فقط بالمبادئ والقيم . وقد اتسع صدر الإسلام لكل جديد . بعد أن هذبه وطوره حتى أصبح ملائمًا لروحه ومبادئه . فهل تقوى قياداتنا الفكرية والروحية على ذلك ؟ هذا ما نتمناه .

الفهرس

- ٥ بيان
- الحلقة الأولى
- ٧ الشباب
- الحلقة الثانية
- ٣٥ بناء الإنسان المصرى
- الحلقة الثالثة
- ٩١ بين القديم والجديد



مطابع الشروقة

القاهرة: ١٦ شارع عزادى حى. هاتف: ٧٥٤٣١٤، بريقنا، شروق القامع - تلى: 93091 SHROK UN
بىروت: ١ ص ب ٨٠٦٤، هاتف: ٣١٥٨٥٩، بريقنا، داشروق - تلى: SHOROK 20175 LE